كتاب الهلال



١٥٠ قرشا

للغسالات
الأوتوماتيكية

FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES

Loly

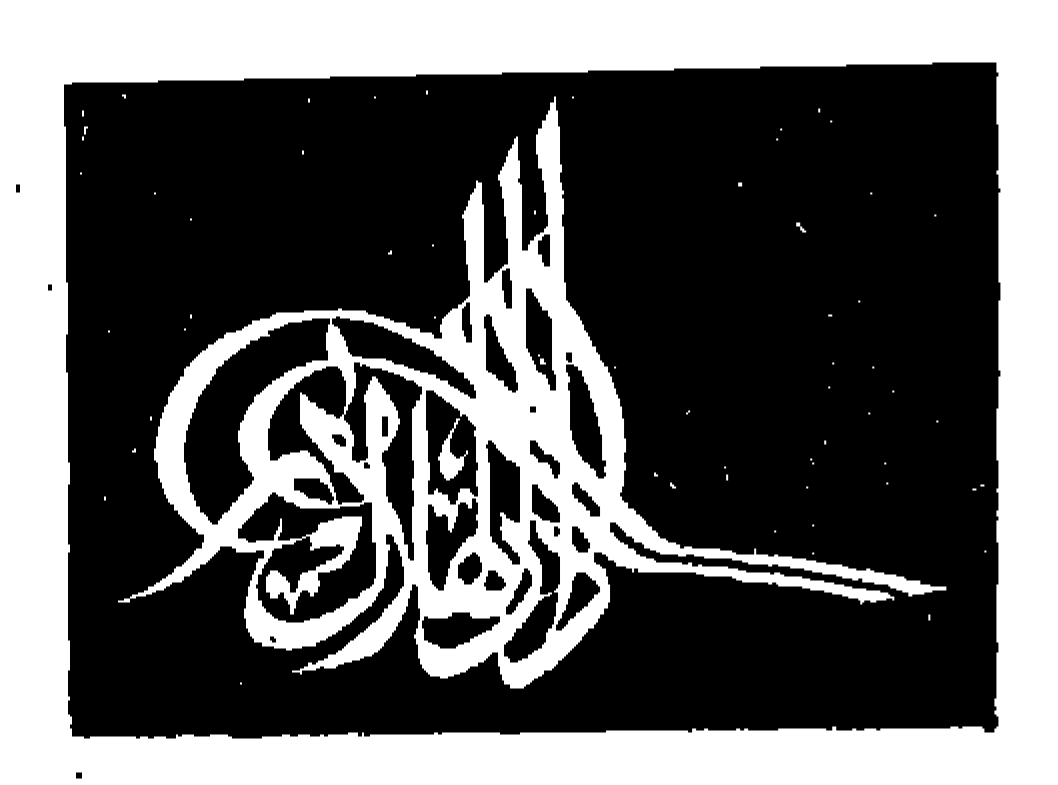
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT

لولى

• رغوة محدودة ممتدة المفعول.
• الوحيد الذى يتميز باحتوائه
على أنزيمات فعالة...
لها القدرة على إزالة
البقع البروتينية

سلوب عصرى للتنظيف
وأداء فعال متميز

شركة الإسكندرية للزيوت والصابون



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٥ صفر ١٤١٠ - سبتمبر ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :

مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :

مصطفى نبيل

مدير التحرير :

عايد عياد

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للنسخة للقارىء في مصر :

سوريا ٥٠ ليره ، لبنان ٧٠٠ ليره ، الاردن ٧٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، الدوحة ٨ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسه ، تونس ١٦٥٠ مليما ، غزه والضفة ١ دولار ، لندن ١٥٠ بنسا .

الغلاف تصميم الفنان
محمد أبو طالب

الغرابُ الأبيض

أوظاهرة سَلمَان رشُدى

بقلم: زهير علي شاكر

دار الهلال

« المقدمة »

لا يكاد يختلف اثنان على أهمية الكتاب الذى أخرجه الكاتب الهندى الأصل ، الإنجليزى الجنسية "سلمان رشدى" ، والذى يعرف فى لغتنا العربية باسم "الآيات الشيطانية" ، بل لا أغالى إذا قلت إن الكتاب وكاتبه هما أشهر كتاب وكاتب ظهرا فى ميدان الهجوم على الإسلام فى هذا القرن كله .

ولا يكتسب الكتاب أهميته من القيمة العلمية للموضوعات التى يناقشها ، ولا من قيمته الفنية كعمل أدبى ، فهو ـ كما سنرى ـ قليل القيمة من هاتين الناحيتين ، وإنما يكتسب أهميته من تأثيره على القطاعات من القراء الذين هو موجّه إليهم . ويعنينا من هذه القطاعات على وجه التحديد : المسلمون المغتربون فى مختلف بلاد الدنيا من ألمانيا إلى أستراليا على اختلاف بلادهم الأصلية ، ومسلمو دول شبه القارة الهندية الثلاث (باكستان ـ الهند ـ بنجلاديش) ، والذين تعتبر اللغة الإنجليزية لغة القراءة الأساسية عندهم .

ويكتسب أهميته ثانيا ، من القضايا التى يتعرض لها ، والتى تمس ـ على وجه الخصوص ـ حياة المسلمين المغتربين وفكرهم وعلاقتهم بالمجتمعات الجديدة ، التى يعيشون فيها فى عزلة شبه تامة عن المنابع الصحيحة لثقافات بلادهم .

ويكتسب أهمية ثالثة من المواقف التى يتخذها ، والجانب الذى يدافع عنه من القضايا التى يعالجها ، والتى يتظاهر فيها بالدفاع عن مصلحة أولئك المسلمين المغتربين ، لا لصحة تلك المواقف ،

وإنما لعكس ذلك على طول الخط . فلو كان الكتاب يتخذ مواقف صحيحة من تلك المشاكل الحياتية والفكرية لما كانت هناك ضرورة لعرضه أو مناقشته ، ولما استحق كل هذا العناء ، الذى استحقه بما فيه من باطل لا بما فيه من حق .

فهو فى آن واحد كتاب عظيم التأثير ، عظيم الخطأ ، عظيم الخطر .

وقد ضاعف من تأثيره وخطره عاملان هامان : أولهما أن كاتبه مسلم ـ أو منتم إلى الإسلام ، مما يجعل هجومه على الإسلام يبدو من قبيل النقد الذاتى ، والثانى هو الضجة الإعلامية الهائلة التى صاحبت صدوره ، والتى ضاعفت من رواجه من ناحية ، وجذبت إليه قطاعات من القراء لم تكن لتبالى به لولا تلك الضجة ، حيث أظهرت الكتاب وكاتبه فى صورة المظلوم المضطهد المطارد ، وهى كلها صفات تجذب القراء وتثير فضولهم ـ على عكس الغرض المعلن منها ، والتى أحالت الكاتب والكتاب إلى ظاهرة لا يمكن تجاهلها أو تناولها بخفة أو تعجل . ظاهرة تستدعى أن ندرسها دراسة هادئة متأنية ، محاولين استشفاف ما فيها من فكر ، وما تحتها من تيارات ، وما وراءها من قوى دافعة مؤثرة . ثم محاولين أن نتوصل من كل ذلك إلى موقف فكرى وحضارى إزاءها .

ومن المؤسف أن أغلب من كتبوا عن هذه الظاهرة فى الصحف العربية ، لم يقرأوا الكتاب ، أو لم يقرأوه كله على الأقل ، بل اكتفوا بقراءة مقالات عنه ، أو بقراءة بضع صفحات منه ، أو بتقليب أوراقه على عجل ، فجاءت كتاباتهم عنه ناقصة مبتسرة .

ولعل لهم بعض العذر من صعوبة قراءة الكتاب . فهو فعلا من أصعب الكتب قراءة ، لدرجة أنه يقال إنه قد تألفت جمعية فى لندن ، اسمها "جمعية قراءة الآيات الشيطانية" ، شرط عضويتها أن يستطيع العضو إكمال قراءة ثلاثين صفحة من الكتاب الذى تبلغ صفحاته ٥٤٦ صفحة .

كما أن من المؤسف أيضا أن بعض من تناولوا الكتاب ، أعلنوا - صراحة أو ضمنا - أنهم يحجمون عن الخوض فى المواضيع والأفكار التى وردت به ، تجنبا للوقوع فى الكفر . وهم بذلك يخالفون القاعدة الإسلامية القديمة بأن "ناقل الكفر ليس بكافر" . هذه القاعدة التى كانت وما تزال شعارا للفكر الإسلامى ، يميزه عن كل فكر عقائدى آخر ، وسلاحا ماضيا يمكّن المفكرين المسلمين دائما من مواجهة كل فكرة تقال ضد دينهم - مهما كانت خاطئة أو فاحشة - بكل صراحة ودون خوف أو خفاء .

وليست هذه القاعدة من اختراع علماء المسلمين وأئمتهم ، فهى مطبّقة أولا وقبل كل شىء فى القرآن الكريم نفسه . فهو الكتاب الوحيد بين كتب العقائد ، الذى يعتبر سجلا كاملا دقيقا لجميع الآراء المعارضة له . لا تكاد تجد سورة من السور الطوال والمتوسطة ، إلا وفيها ذكر لأقوى الحجج التى يرفعها المعارضون لما جاء به ، أو ما جاء به الأنبياء السابقون ، مهما كانت سفاهة تلك الحجج (مجنون - شاعر - ساحر - مُعلَّم - إن هى إلا حياتنا الدنيا - أئذا كنا ترابا ورفاتا أئنا لمبعوثون .. الخ) . ثم يلى ذلك الرد المنطقى العقلى الدامغ على هذا الفكر المعارض .

وبهذا المنطق الصادق الشجاع الذى تميز به كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسارت عليه سنة نبيه الكريم ، ثم اتبعه سائر علماء المسلمين حتى يومنا هذا ، استحق الإسلام أن يسمى "دين العقل" .

وبهذا العقل نفسه ، وفى ظل هذه السنة نفسها ، أقدم للقارىء هذه الدراسة ، التى أرجو أن تكون موضوعية ومنطقية ، لهذا الكتاب الشهير ، وكاتبه الأشهر كما نراه من خلال كتابه .

وأبرأ إلى الله سلفاً مما تضمنه من باطل ، وما جاء به عن ملائكته الكرام وأنبيائه البررة وعباده المؤمنين ، من استهزاء أو إفك .

تقسيم الكتاب

الصعوبة الأولى التى يواجهها قارىء الكتاب ، وأول شىء يبعث على الحيرة ـ بعد اسمه ـ هو طريقة تبويبه .

فللوهلة الأولى يحار المرء فى تصنيف الكتاب : أهو رواية أدبية تحكي قصة متصلة لها أول ولها آخر ، أم كتاب رأى يناقش قضايا فكرية ومواقف تاريخية ؟.. ثم لا يلبث المرء بعد شىء من التأمل أن يتبين أنه لا هو كتاب ولا هو رواية ، وإنما هو كتاب ورواية مضمومان معا فى مجلد واحد وغلاف واحد .

ولا أعنى بذلك مجرد أن الكاتب يعبر عن رأيه فى القضايا التى يطرحها من خلال تفاعل شخصيات القصة مع بعضها البعض ومع العالم الذى يحيط بها ، فى تزاوج بين السرد القصصى والرؤية العقلية ـ فهذا شىء عادى ومفترض فى كل عمل أدبى . وإنما أعنى حرفيا أن الكتاب قسمان منفصلان لا يكاد يربط بينهما إلا علاقة واهية . أحد القسمين قصة طويلة ذات فصول خمسة ـ وسأسميها **"الرواية"** ، والقسم الثانى كتاب رأى محض ذو أربعة أبواب ، وسأسميه **"الرسالة"** .

والغريب أن الكاتب لم يجمع كلا من القسمين فى جزء منفصل عن القسم الآخر ، ولكنه أدخلهما بعضهما فى بعض بترتيب أقرب إلى طريقة "تعشيق" التروس : فصل من الرواية ، ثم باب عن

الرسالة ، ثم فصل آخر من الرواية ، وهكذا حتى آخر الكتاب . كأنهما كانا فى الأصل كتابين منفصلين فككهما صاحبهما إلى ملازم وأرسلهما إلى ورشة التجليد ، وأمر أن يعاد تجليدهما فى مجلد واحد بطريقة تبادلية ، ملزمة من هذا ثم ملزمة من ذاك إلخ ..

الملاحظة الثانية : أن فصول الرواية (وهى القسم القصصى من الكتاب) ، مثلها مثل أى رواية ، متفاوتة فى الطول : بعضها يزيد عن ٨٠ صفحة وبعضها الآخر يقل عن ٤٠ صفحة . وهذا شىء منطقى ومفهوم ، فالكاتب عندما يكتب لا يستطيع أن يحدد لنفسه سلفا عدد الصفحات التى يخصصها لكل فصل ، فقد يقوده السياق إلى الاسترسال فى فصل ، ويلزمه نفس السياق بالاقتضاب فى فصل آخر .

ولكن الشىء غير المفهوم هو أن أبواب "الرسالة" الأربعة متساوية تماما فى طولها وعدد صفحاتها . كل منها بغير استثناء يقع فى ٣٥ صفحة بالتمام والكمال لا ينقص صفحة ولا يزيد .

وربما كانت هذه الملاحظة شكلية تماما . وربما كانت لا تدل على شىء سوى المصادفة البحتة . ولكننا إذا أضفنا إليها طريقة "**التعشيق**" التى أدخل بها الكاتب القسمين فى بعضهما البعض ، نرجح أنها شىء مقصود لذاته ، وأن "الرسالة" كانت هى الموضوع الأساسى الذى عناه الكاتب بكتابه ، ثم صنع قصة طويلة أدخل بين فصولها أبواب الرسالة الواحد تلو الآخر .

ولكى لا يلتبس الأمر على القارىء ، أشير إلى أن "**الرواية**" ليست سردا خالصا لأحداث قصصية ، وإنماتتخلله بالطبع وقفات لإبداء الرأى ، وتتخلله أيضا رؤى قصيرة تدخل فى سياق القصة . كما أن "**الرسالة**" ليست رأيا تقريريا محضا ، بل إن كلا من أبوابها مصبوب فى قالب قصصى لا يخلو من خط درامى . ولكن الغالب على الأولى هو السرد القصصى ، بينما الغالب على الأخرى

هو المعالجة الفكرية ـ إن صحت التسمية .

كما أن لكل من القسمين شكلا مخالفا للقسم الآخر . فالرواية عبارة عن قصة واقعية معاصرة تدور أحداثها فى أماكن لها أسماء معروفة من عالمنا هذا ، وأبطالها أشخاص عاديون ذوو أسماء عادية من نوع الأشخاص الذين نلتقى بهم فى أيامنا هذه . أما الرسالة فهى فى صورة "أحلام" أو "تقمصات روحية تناسخية" منفصلة عن بعضها البعض ، تدور أحداثها فى أماكن ذات أسماء تنكرية ـ ولا أقول رمزية ـ وأبطالها أشخاص لهم أيضا أسماء تنكرية ، وإن كان هذا التنكر شكليا محضا ، غلالة شفافة لا تخفى شيئا مما وراءها من أماكن حقيقية وأشخاص حقيقيين فى التاريخ القديم والمعاصر ، أراد لنا الكاتب أن نميزها على الفور وبلا خطأ ، دون أن "يتورط" فى ذكر أسمائها الحقيقية صراحة .

أما الخيط الواهى الذى ذكرناه ، والذى يربط القسمين ، فهو يتمثل فى أن أحد بطلى الرواية ، وهو الشخصية الثانية فيها ، هو الذى "يحلم" أو "يرى" أو "يتناسخ" فى هذه الرؤى التى هى أبواب الرسالة ، يتقمص فيها شخصية ملاك الرب "جبريل" عليه السلام .

هذه هى العلاقة الوحيدة بين القسمين ، علاقة لا تجعل أيا من القسمين يؤثر أو يتأثر بالقسم الآخر ، بحيث أننا إذا حذفنا أحد القسمين كلية ، لبقى القسم الآخر متصلا مترابطا لا يكاد ينقصه شىء .

ويقال إن هذه الطريقة أسلوب جديد فى الكتابة الروائية يسمونه "**سيكولوچيا الحلم**" ، يختلط فيها الوهم بالحقيقة ، والحلم باليقظة . وسواء كان ذلك صحيحا ، أو كان الكاتب قد قصد بهذه الطريقة المنظمة المدبرة أن يكسو الكتاب كله ثوب الرواية الطويلة ، أو أن يقطع ملل القارىء من أبواب رسالته المتتابعة

بوضع فصول من القصة بين بعضها البعض ، فإن أول خطوة لكى نستطيع فهم الكتاب ، هو أن نرجع القهقرى فى عملية الإدماج المصطنعة هذه ، بأن نفك التعشيق ، أو نفض الاشتباك ـ بين كل من القسمين وأجزاء القسم الآخر ، لننظر إلى "الرواية" بفصولها الخمسة على حدة ، ثم إلى "الرسالة" بأبوابها الأربعة على حدة ، مع الإشارة إلى المواضع التى يفارق فيها الكاتب الحقيقة ويستغرق فى "الحلم" .

الصعوبة الثانية التى يواجهها قارىء الكتاب ، هى أن الرواية مكتوبة بطريقة سيناريو أفلام الموجة الجديدة : لقطة من هنا وموقف من هناك ، ثم عودة إلى الماضى ثم حوار فى المستقبل ، يحدثك عن شخص وكأنك تعرفه ، في جزء مقطوع من حدث لا تعرف عنه شيئا ، ثم لا تفهم من هو هذا الشخص ولا ماهو الموقف إلا بعد عشرات الصفحات ، وهكذا ..

ويقولون أيضا إن هذه هى "الموضة" الجديدة فى الكتابة الروائية . وأعترف بأنني لم أستسغها قط ، وأظنها نوعا من الإبهار والتهويش ، مقصوداً به إخفاء المغزى الحقيقى للعمل الأدبى ، أو التستر على خواء الفكر الذى يعبر عنه . ولذلك فالخطوة الثانية هى أن نعيد تجميع الأجزاء المتفرقة من الشخصيات والأحداث ، على طريقة ألغاز الصور المقصوصة ، لكى تبدو المعالم الرئيسية للرواية واضحة مفهومة .

العقبة الثالثة التى تواجهنا هى ميل الكاتب الدائم إلى **"الابتذال"** . فهو لا يكاد يفلت فرصة لكي يصدم القارىء بصورة جنسية مكشوفة ، أو بمشهد مثير للتقزز والقرف ، أو بلفظ بذىء ، أو بكلمة سباب سوقية يصف بها ذات الله سبحانه بصورة متكررة على وجه الخصوص ، أو أحداً من ملائكته أو أنبيائه ، أو واحدا من خلقه فى السماء أو فى الأرض ، أو بتفاصيل شديدة البشاعة عن القتل والجروح والتمثيل بجثث الموتى .

كما أنه لا يتردد فى أن يخرج عن طريقه لكى يروى نكتة ، أو يستخدم كلمة ذات معنيين (تورية) أحدهما جنسى فى الغالب ، أو كلمتين متشابهتين فى النطق مختلفتين فى المعنى (جناس) ، مع ولع دائم بذكر الأعضاء التناسلية الذكورية على وجه الخصوص . ويبدو أيضا أن القارىء الأوربى فى السنوات العشر الماضية ، أصبح لا يستمرىء قراءة أى عمل أدبى أو صحفى أو فنى ، إلا إذا كان مرصعا بهذه الألفاظ التى أصبحت جزءا من كلام الناس اليومى ، بعد أن كانت قاصرة على السفلة .

وعلى أى حال ، فنحن ـ مع التزامنا بأمانة النقل قدر الإمكان ـ سنعفى أنفسنا والقارىء من هذا الابتذال ، إلا فى الأحوال التى يتعذر بدونها متابعة السياق أو فهم جانب من فكر الكاتب ونفسيته ، باذلين فى هذه الأحوال ـ وهى أحوال نادرة إن شاء الله ـ كل جهد لتوضيح الصورة بالإشارة دون العبارة ، وبالتلميح دون التصريح .

الباب الأول

الرواية

الملاك جبريل

يبدأ الكاتب الرواية بعبارة سوف تتكرر كثيرا بعد ذلك ، وكأنها الحكمة التى يستخرجها من الكتاب كله ، فيضعها فى أول سطر منه : "من أجل أن نولد من جديد .. لابد أن نموت أولًا" .

بعد ذلك نرى الشخصيتين الرئيسيتين فى الرواية : أولهما "جبريل فاريشتا" ، والثانى "سالادين شامشا" . وسوف نسمى الأول "فاريشتا" ، لتمييزه عن الملاك جبريل ، كما سوف نسمى الثانى "صلاح" للاختصار . وصلاح هو فى الواقع الشخصية الأولى فى الرواية ، أما فاريشتا فهو الشخصية الثانية ، وإن كان بالنسبة للرسالة هو الشخصية المحورية المشتركة بين كل أبوابها .

نرى هذين الشخصين يسقطان من ارتفاع ٣٠ ألف قدم ، بعد أن انفجرت الطائرة الهندية التى كانا يركبانها فوق القنال الإنجليزى ، بالقرب من ساحل إنجلترا . وكانت إحدى الجماعات الإرهابية قد اختطفت الطائرة ثم فجرتها فى الجو ، بعد أن أوشكت أن تصل إلى الساحل البريطانى .

ونجد أشياء مشتركة ومشابه كثيرة بين "صلاح" ، و"فاريشتا" . فكلاهما هندى الأصل من مواليد بومباى ، فى الأربعين من عمره ، ينتمى إلى عائلة مسلمة . وكلاهما مشتغل بالتمثيل ، وإن كان "صلاح" ممثلا مغمورا فى المسارح

الإنجليزية ، بينما الثانى "فاريشتا" نجم ساطع فى عالم السينما الهندية ، اشتهر بتمثيل أدوار الكائنات العلوية كالملائكة والآلهة ، ولاقت أفلامه إقبالا هائلا ، حتى أصبح لا يكاد يوجد من لا يعرفه فى شبه القارة الهندية كلها .

صلاح كان عائدا من بومباى إلى مقر إقامته فى إنجلترا بعد زيارة للهند ، أما فاريشتا ، فكان يسافر متنكراً إلى إنجلترا ، بعد أن تعمد الاختفاء عن الأنظار وهو فى الهند مدة طويلة ، حتى أيقن الجميع بموته .

ويقدم إلينا الكاتب أيضا شخصية ثالثة هى "ريخا ميرشانت" التى كانت عشيقة لفاريشتا ، حتى اختفى عن الأنظار ، فأيقنت كما أيقن الجميع بموته ، فانتحرت حزنا عليه بإلقاء نفسها من سطح أعلى عمارة فى بومباى ، بعد أن ألقت بأولادها الثلاثة قبلها . وستظهر لنا هذه الشخصية مرات كثيرة فى صورة شبح يركب بساطا سحريا ويطارد فاريشتا أينما ذهب .

يترك الكاتب بطليه الرئيسيين يهويان من هذا الارتفاع الشاهق ، ويعود بنا بطريقة "الفلاش باك" إلى نشأة كل منهما منذ الطفولة .

فاريشتا :

اسمه الأصلى "إسماعيل نجم الدين" . ولد فى عائلة فقيرة فى بومباى . أبوه عامل كادح ، حمال بسيط ، وأمه صدمها أتوبيس فماتت وهو مازال صبيا ، فعرف طعم اليتم والفقر منذ طفولته . وعمل مساعداً لأبيه فى عمله حتى بلغ العشرين من عمره ، ثم مات أبوه أيضا أثناء قيامه بعمله الشاق ، فأشفق عليه السيد "مهاترى" ، وهو أحد كبار موظفى الشركة التى كان يعمل فيها أبوه ، وآواه فى بيته ، فعاش معه هو وزوجته التى لم تنجب ، وكأنه ابن لهما ، مع استمراره فى العمل فى نفس الشركة .

وفى هذه المرحلة من حياته ، انشغل ذهن فاريشتا بالغيبيات ، وألحت عليه فكرة تناسخ الأرواح ، وجلسات تحضير الأرواح ، كما ألحت عليه أسئلة لم يجد عليها إجابة شافية ، عن وجود الله ، وعن وجود الشيطان والملائكة والجن والعفاريت . ومع أنه لم يكن شديد التدين ، إلا أنه بدأ يقارن بين حقائق حياته وبين حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ كما سمع أقاصيصها من أمه ، وأهمها الصفة المشتركة بينهما وهى اليتم ، حتى بدأ يتمثل فى حاضنته ـ زوجة مهاترى ـ صورة السيدة خديجة زوجة الرسول الأولى التى كانت له زوجة وأمّا فى آن معا .

وفى يوم عيد ميلاده الحادى والعشرين ، فاجأه السيد مهاترى بأنه قرر أن يغير مجرى مستقبله تغييرا تاما ، لأنه فى رأيه يصلح للتمثيل ، ومن الخسارة أن يضيع موهبته فى القيام بعمله البسيط . فقدمه إلى أحد أعلام السينما : السيد "رام" ، الذى قَبل على الفور أن يقدمه فى أدوار سينمائية ثانوية ، تحت اسم فنى جديد ، هو "جبريل فاريشتا" .

وفى تلك الفترة بدأت تلح عليه تساؤلات محيرة عن الجنس الآخر ، كما بدأ يؤرقه التفكير فى جانبين معينين من حياة الرسول : هما قصة الغرانيق المنسوبة إلى النبى ، ومسألة زوجات النبى الكثيرات ، بالإضافة إلى مسألة تناسخ الأرواح . كما بدأت تتراءى له كالأحلام صور عن فراشات ملونة تأكلهن فتاة جميلة ، وعن أطفال بلا وجوه ، وعن قصور خرافية مملوءة بالجواهر الثمينة .

وجاءت النقلة الكبيرة التالية فى حياته ، عندما كلفه السيد "رام" بدور رئيسى فى فيلم جديد يقوم فيه بدور الإله الهندى "شيفا" الذى يتجسد فى صورة فيل ، فيرتدى طوال الفيلم قناعا على شكل رأس الفيل ، يخفى وجهه كلية عن المشاهدين . ثم توالت بعد ذلك الأفلام التى يقوم ببطولتها ، وكلها يمثل فيها أدوار

الآلهة أو الملائكة ، حتى أصبح النجم الأول فى سماء السينما الهندية . وفى نفس الوقت ، بدأ يتعرف على الممارسة الجنسية ، فأغرق فيها حتى كادت أن تودى بمستقبله .

وبعد أن انفتحت أمامه أبواب المجد والثراء ، ترك منزل السيد مهاترى ، وانتقل إلى شقة فاخرة فى رأس أعلى عمارة فى بومباى ، اسمها "إيفرست" ، حيث تعرف على جارته "ميخا" التى تقيم تحت شقته مباشرة ، وهى زوجة لرجل أعمال ثرى ، وأم لولد واحد وبنتين . وبدأت بينهما قصة غرام ملتهب ، حتى أصبحا لا يكادان يفترقان كلما غاب الزوج عن المنزل . وعرف عن طريقها ـ من بين ما عرف ـ شرب الخمور الفاخرة التى كانت تشاركه احتساءها .

وفى أثناء تمثيل أحد الأفلام ، وقع له حادث نتيجة لكمة طائشة قوية أصابت فكه ، فوقع مغشيا عليه ، ونقل إلى المستشفى حيث ظل فى غيبوبة امتدت أياما ، إلا من لحظات قصيرة كان يفيق فيها ، ويناجى الله ويتضرع إليه أن يمنحه معجزة ما ، تشفيه من ناحية ، وتؤكد لديه وجود الله من ناحية أخرى . وحار الأطباء فى تشخيص مرضه ، وعجزوا عن إفاقته أو التوصل إلى علاج يعيده إلى وعيه ، أو يوقف النزيف الداخلى غير المفهوم الذى أصاب جسمه كله .

وفجأة أفاق فاريشتا من مرضه بطريقة لا تقل غموضا عن الطريقة التى سقط بها صريعا . فجأة وجد نفسه يقوم كأنه لم يصبه شىء ، ولاحظ فجأة أيضا أنه قد فقد إيمانه بالله تماما ، ثم وجد نفسه يغادر المستشفى ، ويذهب على الفور إلى أفخر فندق فى المدينة ، حيث يقف فى وسط أكبر بهو فيه ، ويطلب كميات كبيرة من الخمر ولحم الخنزير ، ويقف وسط البهو يتناولها بشراهة وبطريقة إعلانية ، وكأنه يريد لكل ذى عينين أن يشهده وهو تتناثر فى فمه قطع لحم الخنزير مختلطة بجرعات الخمر .

وفى هذه اللحظة بالذات ، وقعت عيناه على فتاة أصبحت بعد ذلك أهم شخصية فى حياته ، بطلة تسلّق إنجليزية الجنسية ، يهودية الديانة ، بولندية الأصل ، اسمها "آلى كون" أو "آلى كوهين" . وكان أبوها هو الآخر قد مات منتحرا وهو فى السبعين من عمره ، ثم ماتت أختها غريقة فى حوض الاستحمام ، وبقيت "آلى" وأمها فى لندن وحدهما .

وكانت "آلى" قد ذهبت إلى الهند لكى تتسلق قمة إيفرست ، ونجحت نجاحا باهرا فى مهمتها ، وقامت بما لم تقم به امرأة قبلها ، وهو تسلق القمة العليا للجبل دون جهاز أوكسوچين ، وطبقت شهرتها الآفاق باعتبارها "ملكة الثلوج" .

ويقع فاريشتا فى غرامها من أول نظرة ، ويقضى معها ثلاثة أيام ونصف يوم لا يفترقان لحظة ، ثم تسافر "آلى" عائدة إلى لندن ، بينما يعود فاريشتا إلى شقته ، وقد صح عزمه على اللحاق بها بأى ثمن . ويذهب إلى شقة "ريخا" ، حيث تمطره بوابل من سهام غيرتها ، فيخرج من عندها غاضبا ، وقد قرر أن تكون هذه آخر مرة يراها فيها .

صلاح :

أما عن طفولة "صلاح" وحياته قبل أن يركب الطائرة المنكوبة ، فإنه أيضا ابن عائلة مسلمة هندية . اسمه الأصلى "صلاح الدين شامشاولا" (ولعلها كانت فى الأصل "شمس الله") . ابن رجل أعمال من أثرياء بومباى اسمه "شانجيز شمس الله" من زوجته الأولى "نسرين" .

أول مشهد نتعرف فيه على صلاح ، عندما كان فى العاشرة من عمره ، وقد عثر مصادفة على حافظة نقود منتفخة بالجنيهات الإسترلينية ، ربما تكون قد وقعت من سائح بريطانى ثرى ، فيلتقطها ويذهب بها إلى منزله فرحا مستبشرا . فهو فى هذه السن

يعيش فى حلم واحد وعلى أمل واحد ، هو أن يذهب إلى لندن ، حيث يصبح ـ بصورة ما ـ واحدا من أولئك الانجليز الذين يراهم فى بومباى ، ويعجب بهم ويتطلع إلى أن يكون واحدا منهم ، أو على الأقل مقيما بينهم .

لا يكاد الصبى يفرح بهذه الغنيمة المفاجئة ، حتى ينقضّ عليه أبوه ، فينتزع منه حافظة النقود ، بحجة أن استيلاءه عليها سرقة لا تليق . ولكنه بدلا من أن يبحث عن صاحبها أو يسلمها للسلطات ، يحتفظ بها وبمحتوياتها لنفسه فى مكان أمين بعيد عن أنظار ابنه الوحيد .

وابتداء من هذا المشهد ، نتعرف على شخصية الوالد وعلى علاقته بابنه ، التى تستمر حتى نهاية الرواية تقريبا . فالرجل ـ رغم اسمه الإسلامى ـ غير متدين لا يؤمن بشىء ، أنانى بخيل مع ثرائه الواسع ، ليس له من هم إلا أن يتربص بابنه صلاح ، لكى يباغته وهو يتهيأ لمتعة أو يمارس لذة خفية ، فلا يكتفى بحرمانه من لذته أو متعته ، بل يفضحه ويخجله ويقلب سعادته نكداً ، أو يتظاهر بالرضى عنه والرغبة فى إسعاده ، حتى يكبر الأمل فى نفس الصبى ، ثم يفاجأ بأن وراء هذه السعادة المنشودة مصيبة قد هيأها له أبوه ، أو كمينا قد نصبه ليوقعه فيه .

وتمثل شخصية الأب عند الولد رمزا للسيطرة الأبوية الشريرة ، وتختلط عنده بصورة الإله المهين القاسى ، الذى يعذب عباده ويلقى بهم فى الجحيم .

تعيش أسرة صلاح فى منزل كبير ، فى مكان من بومباى اسمه "نقطة الفضائح" ، له حديقة واسعة ذات أشجار كثيرة ، من بينها شجرة جوز غرسها أبوه يوم ولد ، وأخذ يتعهدها وهى تكبر كلما كبر ، وكأن بينهما صلة روحية ما ، أو كأنها رمز لوجود "صلاح" نفسه . وفى البيت مكتبة كبيرة ، يحتفظ والده فوق أحد رفوفها ، بجوار الترجمة الإنجليزية لكتاب ألف ليلة وليلة ، بمصباح قديم

علاه الصدأ ، شبيّه بمصباح علاء الدين . ولكن الوالد يمنع ابنه منعا باتا من لمس المصباح أو محاولة حكّه طالما هو حيّ .

أما الأم "نسرين" ، فهي سيدة مهذبة أنيقة ، لا هم لها إلا العناية بأسرتها وبيتها ، وتنظيم حفلات أسبوعية مساء كل يوم جمعة ، فتدعو إلى بيتها عديدا من الأصدقاء والمعارف ، المسلمين فى غالبيتهم ، حيث تقوم بخدمتهم وتقديم العشاء إليهم . وتحتفظ الأم فى بيتها بمجموعة من الرسوم التى تصور سيدنا حمزة بن عبد المطلب فى مواقف مختلفة من البطولة والشجاعة والاستشهاد . مجموعة يطلقون عليها اسم "حمزة نامه" ، أو سجل تاريخ حمزة .

المشهد الثانى نرى فيه صلاح ، وهو فى الثالثة عشرة ، وقد خرج يتنزه ، فقادته قدماه إلى مكان مهجور ، يفاجئه فيه رجل شاذ جنسيا ، يعتدى عليه اعتداء شاذا ، ثم يتركه ليعود وهو يحمل "عاره" ويخفيه عمن حوله .

وجدير بالذكر أن هذا المشهد منقطع تماما .. لم يذكره المؤلف بعد ذلك ولم يشر إليه قط .

بدون مقدمات ، يعلن الوالد أنه قرر أن يكمل صلاح تعليمه فى إنجلترا ، ويركب صلاح الطائرة متجها إلى لندن بصحبة أبيه ، بعد وداع حار من أمه التى أمطرته بالقبلات وغمرته بعقود الزهور ، وهى تحذره من أن يتحول إلى إنجليزى من "أولئك الإنجليز القذرين" الذين يستخدمون ورق التواليت ـ بدل الماء ـ فى دورات المياه .

وفى الطائرة يغرق الولد فى أحلامه الوردية التى تدور حول لندن ، المدينة العظيمة بمغانيها الحافلة وسكانها البيض وجنيهاتها الإسترلينية ، وعن غزو الفضاء والسفر إلى الكواكب التى قرأ عنها فى قصص الخيال العلمى .

وبمجرد وصولهما يفاجأ بأبيه وهو يقدم له نفس حافظة النقود

القديمة ، وفى داخلها كل ما كان بها من نقود . وقبل أن تكتمل فرحة الولد بهذه الهدية الثمينة ، يعلن له والده أن عليه أن يدفع من تلك النقود جميع مصاريف رحلتهما ، ابتداء من إيجار الفندق ، إلى ثمن الطعام ، إلى رسوم التحاقه بالمدرسة ـ كل شىء ، وأن الوالد لن يدفع من جيبه مليما واحدا حتى يسافر عائدا إلى الهند .

ويضطر الولد ـ وقد أصبح مسئولا عن الميزانية ـ أن يرضى بالإقامة فى فندق رخيص ، وأن يقتصر طعامه وطعام والده على الفراخ المشوية ـ أرخص شىء ـ يشتريها من مطعم مجاور متواضع ، ويحملها خفية إلي غرفتهما بالفندق ليأكلاها سرا .

ويسافر الوالد بعد أن يلحق الصبى بمدرسة داخلية فى لندن . ويختصر الولد اسمه إلى "سالادين شامشا" بدلا من صلاح الدين شمس الله . ويبدأ حياته فى مدينة أحلامه لندن ، (أو "إلوين ديووين" كما يسميها .. متهجياً حروف الكلمة الإنجليزية حرفا حرفا وكأنه تدليل لأسمها الأصلى) ، يداعبه حلمه القديم فى أن يصبح ـ يوما ما ـ رجلا إنجليزيا ، رغم تحذيرات أمه ، ورغم ضحكات زملائه التلاميذ الإنجليز من صوته ولهجته ، واعتبارهم إياه غريبا لا يشاركونه أسرارهم ، ورغم الصعوبة التى يلاقيها فى تناول الطعام بطريقتهم ، والتأقلم مع جو بلادهم البارد الرطب .

بعد خمس سنوات من الدراسة فى إنجلترا ، يحصل على الشهادة الثانوية ، ويتقدم بأوراقه للجامعة . وفى إنتظار بدء العام الدراسى ، يعود إلى بومباى فى إجازة ، حيث يلاحظ أبواه أتقانه للغة الإنجليزية ، ولكنهما يلاحظان أيضاً حالة الكآبة المستولية عليه ، وانتقاده الدائم لطريقة الحياة الهندية ، ونظرة المرارة القاسية التى يواجه بها أباه .

وفى تلك الفترة تقوم الحرب بين الهند وباكستان ، مقرونة بمشاعر العداء المكتوم من الأغلبية الهندية غير المسلمة ، إزاء الأقلية المسلمة . ولكن أمه تستمر فى إقامة حفلاتها الأسبوعية ،

كمحاولة لمقاومة هذا الشعور العدائى ، والتأكيد على وطنية الهنود المسلمين رغم إنتمائهم الدينى .

وفى واحدة من تلك الأمسيات ، يقوم الطيران الباكستانى بغارة على بومباى ، فيفزع الضيوف وأهل المنزل ، ويختفى كل منهم خلف جدار أو تحت قطعة أثاث ، وتقف أمه وحدها فى غرفة المائدة ، محاولة إقناع الجميع بأن الحفل مازال مستمرا . وتتناول فى الظلام قطعة كبيرة من السمك ، فتقف فى حلقها شوكة كبيرة ، وتحاول عبثا أن تستغيث ، ولا مجيب لصرخاتها المكتومة وسط ضوضاء الغارة وجو الذعر المسيطر على الجميع .

ويعود الضيوف إلى غرفة المائدة بعد إنتهاء الغارة ، ليجدوا مضيفتهم قد ماتت مختنقة .

يسافر صلاح بعد الجنازة إلى لندن ليكمل دراسته . وبعد عام حصل خلاله على الجنسية البريطانية ، يتلقى رسالة من أبيه يبشره فيها بأنه قد تزوج من سيدة أخرى اسمها أيضا "نسرين" ، أو "نسرين ٢" . ويرسل صلاح لأبيه رسالة مليئة بالغضب ، فيرد عليه بالتقريع على موقفه الطفولى ، ويهدده بحرمانه من الميراث ، وينبئه بأنه قرر أن يقطع عنه المصروف . ويرفض صلاح أن يرد على خطابات أبيه القليلة التالية ، التى نعرف منها أن الرجل بدأ يتجه اتجاها دينيا صوفيا ، تحت تأثير زوجته الجديدة .

وتمضى سنوات ، يكمل فيها صلاح دراسته ، معتمدا على نفسه ، بعد أن امتهن التمثيل الإذاعى ، مستغلا موهبته الفائقة فى تقليد الأصوات : فهو يستطيع أن يقلد جميع اللغات واللهجات بإتقان تام ، فضلا عن تقليد أصوات الحيوان والجمادات ، صوت زجاجة عصير طماطم ، أو قرقشة كيس من البطاطس المقلية أو سجادة متكلمة إلخ .. حتى أطلق عليه اسم "ذى الألف صوت" .

ونال نجاحا لا بأس به فى مجال الإعلانات الإذاعية .

ويتعرف على زميلة له فى نفس المهنة ، لها نفس الموهبة ، يهودية من أصل أرمنى ، اسمها "ميمى ميموليان" ، تقترح عليه أن يتزوجها ، ولكنه يرفض لأنها يهودية .

ويتعرف خلال هذه الفترة أيضا على حبه الأول "پاميلا لڤلانس" ، الإنجليزية البيضاء ذات الصوت الأجش ، التى يعلم بعد أن يتزوجها أن أبويها كانا قد ماتا منتحرين من فوق عمارة شاهقة فى لندن ، بسبب غرقهما فى ديون القمار ، وهى على أبواب المراهقة ، مما أحدث شرخا عميقا فى شخصيتها ، وشعورا دائما بالإحباط ، وبأن الناس يأخذون منها ولا يعطونها ، حتى أنها رفضت أن تدخل الجامعة والتحقت بوظيفة كتابية .

ويفشل صلاح وپاميلا فى الإنجاب ، بسبب عيب فى "كروموسوماته" ، أى التركيب الداخلى لخلايا الإنجاب عنده ، وتفتر العلاقة بينهما ، خاصة وأن پاميلا قد اقتنعت بأنه لم يكن يحبها هى ، وإنما هو عاشق لإنجلترا نفسها ، التى لا يتصور أن يفارقها أو أن يحرمه شىء من الإقامة فيها .

وتسافر الفرقة المسرحية التى يعمل بها إلى بومباى ، بعد أن بلغ الأربعين ، فيسافر معها حيث يقوم بدور الطبيب الهندى فى مسرحية "المليونيرة" لبرناردشو .

وفى أقل من ٤٨ ساعة من وصوله إلى بومباى ، يلتقى بإحدى صديقات صباه "زينات وكيل" ، ويتذاكران أيام الصبا ، حينما كانت زينات تتزين وتذهب إلى حى البغايا ، متظاهرة بأنها منهن ، لكى تغيظ القوادين حتى يطردوها من الحى . وهى الآن امرأة جميلة غير متزوجة ، فى الخامسة والثلاثين ، طبيبة ، مثقفة ، تعمل فى مستشفى فى بومباى ، بالإضافة إلى المقالات التى تكتبها فى النقد الفنى ، والكتب السياسية التى تؤلفها عن مشكلة الهنود

المغتربين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانضمامها إلى جماعة من الماركسيين التروتسكيين .

وتتوثق العلاقة بينهما ، حتى يكادان لا يفترقان طيلة إقامته فى بومباى ، وهى دائمة السخرية من تشبهه بالإنجليز ، وتسمى طريقة تفكيره "عقلية العبيد" ، وتؤكد له أنه سيكون دائما فى نظرهم ـ إنسانا من منزلة أدنى ـ وتصحبه فى رحلات سياحية ، مع شلة من أصدقائها من أهل الفن والمثقفين والماركسيين ، حيث تدور بينهم مناقشات حول واجب الإنسان نحو قومه ، وضرورة شعوره بالانتماء إليهم والإحساس بمشاكلهم ، مهما باعدت بينهم المسافات . ويحاولون إقناعه بالعودة إلى الهند ، مشيرين إلى النجاح الهائل الذى وصل إليه "فاريشتا" ، والذى يستطيع صلاح أن يكون النجم التالى له فى الشهرة .

ويذهب صلاح وزينات لزيارة أبيه فى البيت القديم فى "نقطة الفضائح" . وكان أبوه منذ زواجه الثانى قد انتقل إلى شقة فى عمارة بأحد الأحياء الجديدة فى بومباى ، ولكنه فى نفس الوقت احتفظ بالبيت القديم كما كان قبل وفاة زوجته الأولى أم صلاح ، يذهب إليه ليقضى فيه ـ وحده ـ يومي العطلة من كل أسبوع .

وعند دخول صلاح إلى المنزل ، يفاجأ بوجود امرأة هى صورة طبق الأصل من أمه المتوفاة . ويتضح أنها خادم قديمة عندهم اسمها "كاستوربا" ، اتخذها والده عشيقة له ، وألبسها ثياب زوجته الأولى ، وجعلها تقيم فى البيت القديم ، حيث يذهب إليها يومين من كل أسبوع ، فى حضور زوجها الخادم القديم عندهم أيضا ، الذى أغراه سيده بأن يتزوجها على هذا الشرط ، ليكون ستارا لعلاقتهما .

ويثور صلاح غاضبا لذكرى أمه ، ولكن أباه يهزأ بغضبه ، ويغازل الخادم غزلا مفضوحا أمام ابنه وزوج عشيقته إمعانا فى

إخضاع صلاح وإهانته . ويثور جدال بين الأب والإبن ـ تنضم فيه زينات إلى جانب الأب ، ثم تتطور إلى مغازلته هى الأخرى ، وتقرر أن تهجر الإبن لتبقى مع الأب فى المنزل القديم ، عشيقة ثانية ، إلى جانب صورة ـ أو شبح ـ أم صلاح .

ويخرج صلاح غاضبا من إهانات أبيه وخيانة صديقته ، وقد عقد العزم على ألا يرى أباه مرة أخرى ، وأن يغادر الهند عائدا إلى إنجلترا بلا رجعة . ويقع نظره وهو خارج على شجرة الجوز التى ترمز لوجوده ، فيطلب من أبيه أن يقطعها ويبيع خشبها ، حيث لم يعد لها لزوم بعد الآن .

ويركب صلاح طائرة الخطوط الهندية المتجهة إلى لندن ، نفس الطائرة المنكوبة التي ركبها فاريشتا متنكرا ، متجها إلى لندن وراء فتاة أحلامه ، ملكة الثلوج ، آلى كوهين .

ويجلس بجوار صلاح راكب أمريكى الجنسية ، مبشر عائد من رحلة فى الهند ، كان يلقى خلالها محاضرات ضد نظرية التطور . ويصر على أن يشرح لصلاح ـ رغم ملله من حديثه ـ عقيدته فى بطلان نظرية داروين التى تخالف العقل وتتناقض مع معتقداته الدينية ، متطرقا إلى التعارض بين العلم والدين ، واستحالة التوفيق بينهما .

ويلاحظ صلاح أن لهجته وصوته ، أثناء حديثه مع الركاب والمضيفات ، قد تأثرا بالفترة التى أقامها فى الهند ، فاكتسبا رنة ولكنة هندية ، فيحاول جاهدا العودة إلى اللكنة الإنجليزية الصميمة ، التى كان قد اكتسبها بالمران الشديد والتدريب القاسى .

وبعد أن تقلع الطائرة بقليل ، تعلن الجماعة الإرهابية التى اندست بين الركاب أنها مسيطرة على الطائرة . ويتبين أن الخاطفين جماعة من السيخ الكنديين ، اختطفوا الطائرة كجزء من

العمل السياسى من أجل قضية السيخ فى الهند . وهم خمسة : فتاة وأربعة رجال ، وهى قائدتهم المسيطرة عليهم ، والتى لا تقبل أى تنازلات ولا تتردد فى استخدام العنف .

ويجبر الخاطفون الطائرة على النزول فى مطار شبه مجهول ، فى مكان ما من شبه الجزيرة العربية ، فى واحة يسميها "واحة الزمزم" . وتدور المفاوضات بين الخاطفين والسلطات . وتطول حتى تبلغ عدة أيام . ثم يفرج الخاطفون عن بعض الركاب ، من بينهم النساء والأطفال ، ويحتفظون بخمسين راكبا بمثابة رهائن ، من بينهم صلاح ، وفاريشتا ، والمبشر الأمريكى .

ويحتج المبشر على احتجازه ضمن الرهائن ، فتضربه قائدة الجماعة بكعب بندقيتها على فكه وهو يصيح ، فتتكسر فكه وتقطع لسانه وتسقطه مغشيا عليه ، وتكون هذه الإصابة نفسها هى السبب فى نجاته ، فالإرهابيون غير مستعدين للعناية بجريح ، فينزلون المبشر من الطائرة ، حيا ولكن بلا لسان .

وتقف قائدة الجماعة أمام الركاب ، وتطلب منهم الانتباه . ثم تخلع ثوبها الوحيد لكي يروا بأعينهم أنها تحيط جسدها العارى بالديناميت ، جاهزة لتفجير نفسها والطائرة فى أى لحظة .

ويلتقى صلاح وفاريشتا لأول مرة ، ويتعارفان : فصلاح من ناحيته لا تخفى على فطنته شخصية فاريشتا الشهيرة - رغم تنكره ، وفاريشتا يعرف صلاح من العرض المنسرحى الذى قام به فى بومباى ، ومن أدواره الكثيرة فى الإعلانات . ويلاحظ صلاح أن فاريشتا أبخر الفم ، تفوح من أنفاسه رائحة كريهة ، ولكنه ينسى ذلك وسط الروائح الأخرى التى تفوح من الجميع .

ويرفض فاريشتا أن ينام ، وعندما يغلبه النوم تتراءى له أحلام أو كوابيس ، يهذى خلالها بكلام عن الملاك جبريل ، الذى يرى فاريشتا نفسه فى أحلامه - فى صورته . بينما تغلب على كلامه

وهو مستيقظ : فكرة التناسخ ، والموت ثم العودة إلى الحياة ، ضاربا المثل على ذلك بالمسيح ، والدالاى لاما ، وجوبيتر الإله الرومانى ، وفيشنو الإله الهندى الذى تناسخ فى صورة ثور ، ومكررا العبارة الأثيرة عند المؤلف : "من أجل أن نولد من جديد ، لابد أن نموت أولاً" .

بعد أن تطاول بقاء الطائرة فى ذلك المطار المنعزل حتى بلغ ١٠١ يوم ، قررت قائدة الإرهابيين أنه لا فائدة من استمرار المفاوضات والمماطلات ، وأرادت أن يثبتوا للسلطات أنهم جادون فى تهديداتهم بقتل الرهائن ، فقامت بقتل أحد الركاب وإلقائه من الطائرة ، رغم معارضة زملائها الرجال ، الذين يكرهون إراقة الدماء ، ويفضلون الحلول السلمية .

وترضخ السلطات لطلبات الإرهابيين ، فتسمح للطائرة بالإقلاع متجهة إلى لندن .

ويستبشر صلاح وهو يرى من نافذة الطائرة خط الساحل البريطانى ، مهنئا نفسه بالعودة إلى "العالم الحقيقى" ، إلى الثلوج البريطانية البيضاء الجميلة ، بعد رمال الصحراء العربية الصفراء الكريهة .

ولكن فرحته ـ كالعادة ـ لا تكتمل ، فتقوم معركة بين قائدة الإهاربيين المتعطشة للدماء وبين زملائها الراغبين فى المسالمة ، فتقتل القائدة أحدهم ، ثم تفجر الطائرة فى لحظة ، وهى على ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق البحر .

(وبين الإغماء والإفاقة ، يرى فاريشتا نفسه ، أو يتناسخ ، فى صورة الملاك جبريل ، فى الرؤيا الأولى ـ الباب الأول من الرسالة ـ التى يسميها المؤلف : ماهوند)

الفصـل الثانـى

لنـدن « إيلوين ديووين »

لا ينجو من ركاب الطائرة إلا صلاح وفاريشتا ، إذ يهبطان بصورة ما ـ بغير مظلة ـ سالمين على أرض الساحل البريطانى . وكأنما كان هذا المهوى السحيق الذى سقطا فيه ، نفقا أو دهليزا طويلا أجريت عليهما فيه عملية تناسخ ، ماتا فيها ثم ولدا من جديد ، وانتقلت خلالها روحاهما إلى جسدين جديدين ، يشبهان جسديهما الأولين وإن كانا لا يماثلانهما بالضبط . فعلى سبيل المثال يختفي البَخَر (الرائحة الكريهة) من فاريشتا ويظهر عند صلاح ، وتتغير ملامح وجه صلاح البريئة إلى ملامح قاسية جامدة ، بالإضافة إلى اختلافات أخرى تظهر تدريجيا .

يفيق الرجلان فيجدان نفسيهما راقدين فوق الثلوج ، أمام منزل صغير على مشارف قرية ساحلية ، تقيم فيه امرأة إنجليزية وحيدة عجوز اسمها "روزا" ، فى الثامنة والثمانين من عمرها ، تعيش على ذكريات ماضيها مع زوجها الراحل ، وحياتهما معا عندما كانا فى الأرجنتين . وتعثر "روزا" على الرجلين بعد أن أفاقا ، فتأخذهما إلى بيتها . ويكون أول شىء يفعله صلاح أن يتصل بمنزله فى لندن . ولكنه بدل أن يسمع صوت زوجته "باميلا" ، يرد عليه صوت رجل هندى آخر ، فيعرف أنها تخونه ، فينهى المكالمة معتذرا بأنها "نمرة غلط" ، وهو يلعن كل هندى على ظهر الأرض .

وبعد قليل يأتى رجال الشرطة ، وقد لاحظوا وجود شخص ملقى

على ثلوج الشاطىء ، مما يوحى بأنه متسلل يحاول الدخول إلى الأراضى البريطانية بغير تأشيرة دخول . ويلقون القبض على صلاح ، فيحاول عبثا إقناعهم بأنه إنجليزى الجنسية ، بريطانى "من الدرجة الأولى" ، ولكن وجهه الهندى ، ولهجته ذات اللكنة الهندية ، وأوراقه الضائعة ، كلها تكذّب ادعاءه . ويحاول الاستعانة بزميله فاريشتا ، ولكنه - وقد ارتدى ثوبا أنيقا من ثياب زوج "روزا" الراحل واتخذ سمت الجنتلمان المهذب - يرفض أن يشهد معه ، ويتركه لمصيره بين يدى رجال الشرطة الذين ينكّلون به ، وهو يلعن خيانة صديقه ، بعد خيانة زوجته .

وفى سيارة الشرطة ، تحدث تحولات فى جسد صلاح ، فتظهر له أظلاف بدل القدمين ، وينبت له قرنان على رأسه ، ويكتسى جسمه بشعر كثيف ، ويتحول صوته الذى كان ذا ألف لون ، إلى نغمة واحدة كمأمأة الماعز - وهى الصورة المتعارف عليها "للشيطان" فى الأساطير الغربية . وبين صفعات رجال الشرطة وركلاتهم ، ومعاملتهم له باعتباره "حيوانا" ، يجد نفسه يتبرز على أرض السيارة ، فيجبرونه على أن يأكل برازه وينظف السيارة التى لوثها . ثم يلقون به فى السجن ، بين الإهانات المستمرة والضرب المبرّح .

هذا بينما فاريشتا - على النقيض من ذلك - باق لبضعة أيام فى ضيافة العجوز "روزا" ، معززا مكرما ، مازالت معه أوراقه كاملة ، يحملها فى حزام حول وسطه ، مع النقود الإنجليزية الكثيرة التى كان قد اشتراها من السوق السوداء فى بومباى . وقد ظهرت حول رأسه - لا قرون مثل صلاح - بل هالة من النور ، مثل الهالات التى تحيط برءوس الملائكة ، كما يتصورهم الغربيون أيضا .

وتنتاب روزا موجة من المرح المفاجىء ، بمناسبة عيد ميلادها الثامن والثمانين ، فتشرب وتدخن وترقص مع فاريشتا حتى الصباح - وهى فى سنها هذا - ثم تسقط مريضة بعد هذا

المجهود ، وتموت بعد بضعة أيام ، وهى تهذى لفاريشتا عن ذكرياتها القديمة ، فتجعله يعيش فيها بخياله ، وكأنه مشارك فيها أو أحد أشخاصها . وبموت "روزا" ينتهى كل ما يربطه بذلك المنزل ، فيستقل القطار متجها إلى لندن - إلى آلى كوهين .

أما عن صلاح ، فإنه ينجح بعد لأى فى إقناع رجال شرطة الهجرة بالاحتكام إلى الكمبيوتر للتحقق من صحة كلامه ، ذاكراً لهم أسماء النقابات والجمعيات التى يتمتع بعضويتها ، ورقم سيارته إلخ .. ورغم التطابق بين بيانات الكمبيوتر والبيانات التى ذكرها ، ومع اقتناعهم بأنه بريطانى الجنسية وليس متسللا ، إلا أنه يظل فى نظرهم "واحداً من أولئك الأسيويين" ، مواطنا من الدرجة الثانية . وحتى لا تكشف الإصابات التى فى جسمه عن جريمتهم ، باعتدائهم على مواطن بريطانى دون وجه حق ، يقررون إيداعه فى مستشفى حكومى ، زاعمين أنه قد أصيب بسبب سقوطه على الثلوج ، لا من سوء معاملة الشرطة .

ويبقى فى المستشفى بضعة أيام ، يعانى خلالها أيضا من سوء المعاملة ، وقسوة الأطباء والممرضات عليه وعلى زملائه من المرضى المهاجرين المتسللين ، ومعاملة الأطباء له على أساس أنه مجنون أو مختلّ عقليا . فيهرب من المستشفى ويعود إلى لندن ، سيرا على الأقدام - بل على الأظلاف - متجنبا الطرق الرئيسية ، وقد تضاعف شعوره بالمرارة ، وسخطه على الوجود كله .

فى فترة غياب صلاح عن لندن ، تكون العلاقة قد توثقت بين زوجته وبين صديق عمره ورفيق صباه وشبابه وزميل دراسته "جامشيد جوشى" . وعندما طالت غيبته ، تطورت علاقتهما إلى علاقة غرامية ، وانتقل جامشيد ، أو "چمپى" ، ليقيم مع پاميلا . وعندما تصلهما أنباء انفجار الطائرة ، تشعر پاميلا بالارتياح إلى تلك النهاية التى وضعها القدر لزواجهما الفاشل .

وتجىء المكالمة الهاتفية المبتورة التى أجراها صلاح من بيت

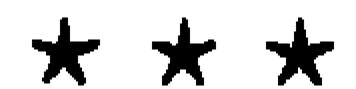
السيدة العجوز ، والتى تعرّف خلالها جمبى على صوت صلاح . فتضطر پاميلا للذهاب إلى المطار للتأكد من أن زوجها قد مات ، وهناك يبشرونها بأن الطائرة لم ينج منها أحد .

وبعد أسبوع يأتى صلاح إلى المنزل فجأة ، وهو فى حالة يرثى لها ، قد تلطخ وجهه وثيابه بالدم والوحل والثلج . ومع تأكدهما من شخصه بالرغم من قرونه وأظلافه إلخ ..، تصرخ پاميلا فى هستيريا ، مؤكدة أن زوجها قد مات ، وأن أحدا لم ينج من الطائرة ، وأنها أرملة صلاح لا زوجته .

فى نفس الوقت ، يكون فاريشتا قد وصل إلى لندن راكبا قطار الدرجة الأولى ، حيث التقى مصادفة براكب هندى آخر اسمه "جون مَسْلَمة" ، رجل ذى ست أصابع فى كل من قدميه . ويفضى فاريشتا إلى مسلمة بأنه يزمع أن يتولى إصلاح العالم بنفسه ، ويعلن له مسلمة أنه منضم إليه فى مهمته ، وأنه سيكتم سره عن الناس .

ويهيم فاريشتا فى أنفاق المترو بلندن على غير هدى ، يطارده شبح "ريخا" فى كل مكان ، ويؤرقه الشعور بأنه على وشك الجنون أو قد جن بالفعل ، وبأن الله يعاقبه بالجنون ، جزاء كفره به . وفى وسط هذه الرؤى والأوهام ، يلتقى ـ فى الحقيقة ـ بالفتاة التى غادر الهند وقطع كل هذه الرحلة ليقابلها : آلى كوهين .

(وفى هذا الموضع يدخل فاريشتا ـ وهو على صورة الملاك جبريل ـ فى الرؤيا الثانية من رؤاه التناسخية ، وهو الباب الثانى من الرسالة ؛ الذى يسميه المؤلف : عائشة) .



الفصل الثالث

مدينة تبصرها ولا تراها

يأخذ "چمپى" رفيق عمره صلاح ، بعد أن رفضت زوجته بقاءه فى المنزل ، إلى فندق صغير اسمه "فندق شامندار" ، تملكه أسرة مهاجرة صديقة لچمپى ، دفعتها حرب الانفصال بين بنجلاديش والباكستان إلى الهجرة . ونتعرف على أفراد هذه الأسرة : رب الأسرة "محمد سفيان" ، مسلم من السنّة ـ كما يدل عليه اسمه ـ حج بيت الله ، وكان مدرسا قبل أن يهاجر إلى إنجلترا ، واسع الاطلاع على الثقافة الكلاسيكية الغربية .

أما زوجته "هند" ، فهى سيدة بدينة قليلة الثقافة ، كانت مهارتها الفائقة فى فن الطهى هى طوق النجاة لها ولأسرتها بعد أن هاجروا ، فافتتحت مطعما صغيرا تقدم فيه أصناف الطعام الهندية التى لاقت إقبالا كبيرا من المهاجرين من أبناء شبه القارة الهندية ، بينما تحول سفيان من عائل الأسرة الوحيد ونجمها الثقافى اللامع إلى مجرد مساعد لزوجته ، واضطر إلى التخلى عن كثير من مبادىء الأمانة والشرف ، اللذين يقفان حائلا دون جمع المال ونجاح التجارة . وبعد أن راجت تجارتهما ، اشتريا العمارة التى بها المطعم ، وحوّلا أدوارها الثلاثة العليا إلى فندق .

وللأسرة ابنتان ؛ "ميشال" ، "أناهيتا" . كانتا طفلتين عندما هاجرت الأسرة . تتحدثان الإنجليزية كأهلها ، مع بقية من اللغة القديمة (الأوردية غالبا) ، التى تفهمانها جيدا ، ولكنهما ترفضان استخدامها فى الحديث . وتفضلان طريقة الحياة الإنجليزية على

العادات الهندية القديمة . وتشعر الأسرة بأنها تعيش في منفى لا في مهجر ، بين اضطهاد الغوغاء من الإنجليز من ناحية ، ومضايقات الملونين أنفسهم لبعضهم البعض من ناحية أخرى .

ويرحب سفيان بچمپي وصديقه صلاح ، فيستضيفه فى إحدى غرف الفندق ، رغم حالته الرثة وهيئته الشيطانية ، ورغم اعتراض زوجته وتشاؤمها من دخول هذا الشيطان إلى بيتهم ، بينما يثير وجوده حب الاستطلاع لدى البنتين ، باعتباره شيئا مسليا يقطع الملل الذى تعيشان فيه . وتطمئن الأسرة صلاح بأنه قد أصبح فى أيد أمينة ، بين أهله وقومه . ولكنه بمجرد خروجهم من الغرفة ، يغمغم لنفسه : "لست منكم ، ولستم قومى . لقد عشت حياتى كلها أحاول الابتعاد عنكم" . ويتناول طعامهم على مضض ، باعتباره طعاما "أجنبياً" كريهاً ، لا كطعام "قومه" الإنجليز ، سادة العلم والتكنولوچيا . ويشعر بأن قرونه الطويلة هذه ، ليست علامة على تناسخه فى صورة الشيطان فحسب ، وإنما هى أيضا رمز لخيانة زوجته مع أعز أصدقائه .

ويتصل صلاح تليفونيا بصديقته القديمة ، اليهودية الأرمنية ، ميمى ميموليان ، فتعتذر بأنها مسافرة إلى نيويورك ، مع صديق لها باكستانى لعوب اسمه "بطوطة" يحترف النصب والاحتيال ، حيث يقومان بعملية نصب يربحان من ورائها مبالغ طائلة .

ويتصل به مدير الفرقة المسرحية التى كان يعمل بها ، ليخبره بأن الفرقة قد استغنت عن خدماته ، نظرا لتناقص الإقبال على البرامج المسرحية والتليفزيونية الخاصة بالملونين . فحتى الملونون أنفسهم أصبحوا لا يحبون أن يروا وجها ملونا على الشاشة ، ويفضلون البرامج التى يمثلها ممثلون بيض ، وتدور عن حياة البيض . حتى الإعلانات ، إذا ظهر فيها وجه ملون ، انصرف المستهلكون عن شراء السلعة التى يعلن عنها . ويطلقون على هذه الظاهرة اسم "العم توم الأسمر" .

وتنشر الصحف أنباء نجاة "فاريشتا" من حادث الطائرة . ويعم الفرح الأسرة بنجاة نجمهم المحبوب . وبينما تأكل الغيرة قلب صلاح ، حسداً له على كل هذا النجاح وهذه المنزلة فى قلوب الناس ، تتناقل الصحف أنباء عودة "بطوطة" من نيويورك ، واتفاقه مع فاريشتا على انتاج فيلم جديد يصور (قصة الغرانيق) التى جعلها المؤلف موضوع الرؤيا التناسخية الأولى لفاريشتا . ثم يؤجل المشروع بسبب القبض على بطوطة فى عملية جديدة من عمليات النصب التى يقوم بها .

وتهرب "ميشال سفيان" مع شاب اسمه "حنيف جونسون" ، مولّد من أب إنجليزى وأم هندية ، يجذبها إليه بياض بشرته النسبى الذى ورثه عن أبيه ، بعد مشاحنة مع أمها ، تُرجع فيها هند سبب هذه اللعنة التى أصابت الأسرة إلى وجود الشيطان "صلاح" فى منزلهم .

وتكتشف پاميلا أنها حامل من چمچى ، وتقرر الاحتفاظ بالجنين ، بعد أن فشلت فى أن تنجب من زوجها صلاح .

وتنشر الصحف أنباء عن سفاح مجهول ، يقتل النساء ويمثل بجثثهن بصورة متكررة محددة فى كل مرة ، وكأنها توقيعه على الجريمة . ويحذر البوليس الناس بشكل خاص من الرجال الملونين الذين يشتبهون فى أن القاتل من بينهم . وتحاصر الكراهية فندق شامندار ، باعتباره أكبر ملتقى للملونين فى لندن ، والذى يقيم فيه "الشيطان" نفسه :

ويخرج صلاح وچمچى من الفندق ليعودا إلى منزل صلاح ، حيث يقيم ثلاثتهم تحت سقف واحد ، فقد سمحت الزوجة لزوجها - على مضض - بالإقامة فى غرفة منعزلة بسطح المنزل ، بعد أن أخذ يعود إلى هيأته الآدمية بالتدريج .

فى نفس تلك الفترة ، كان فاريشتا مقيما مع صديقته آلى ، وإن

كان دائم الشرود قليل النوم ، مستغرقا فى تأملاته الداخلية التى تختلط فيها الحقيقة بالمنام بالتناسخ . وكان يخرج هائما فى الشوارع بصورة غامضة ، وقد سيطرت عليه فكرة تطهير هذه المدينة من الدنس . حالة من الشيزوفرانيا (انفصام الشخصية) يعود بعدها فى كل مرة إلى البيت فى حالة يرثى لها من الإرهاق . وفى الصباح تعلن الصحف عن ضحية جديدة وجدت مقتولة وممزقة بنفس الطريقة ، مما يوحى بشكل غامض ، بأن فاريشتا - وليس صلاح - هو ذلك القاتل الذى يقتل النساء ليلا ، والذى تبحث عنه الشرطة . وتتعهده آلى بالرعاية ، رغم تحذيرات أمها لها من جنونه ، دون أن تدرى بما فعله فى فترات غيابه .

ويتفق مع منتج أفلام اسمه "سيسوديا" ، بالاشتراك مع بطوطة وصديقته ميمى ، بعد الإفراج عن بطوطة لعدم كفاية الأدلة ، على إنتاج ثلاثة أفلام جديدة ، مبنية على القصص أو الرؤى الثلاث التى ترويها فصول "الرسالة" ، تحت اسم : جبريل فى مدينة جاهلية ، جبريل يقابل الإمام ، جبريل مع فتاة الفراشات ، والتى سيقوم فيها فاريشتا بدور الملاك جبريل .

وفى ليلة الافتتاح ، وسط مظاهرة دعائية كبيرة كان المفروض أن يكون فاريشتا نجمها الأول ، يهرب فجأة ، ويختفى دون أن يعرف أحد أين ذهب .

(وفى هذا الموضع ، يدخل فاريشتا فى الرؤيا الثالثة من رؤاه التناسخية ، وهو الباب الثالث من الرسالة ، ويسميه المؤلف : العودة إلى "جاهلية") .

الفصل الرابع :

الملاك عزرائيل

في هذا الفصل يحاول صلاح العودة بالتدريج إلى حياته العادية . وهو ما يزال يعيش ـ في استسلام "ملائكي" ـ لعلاقة زوجته بصديقه ، لدرجة أنه يتطوع للإصلاح بينهما عندما يدب بينهما الخلاف . وتحدثه نفسه بتدبير طريقة للانتقام من عدوه الأكبر ـ فاريشتا . ويصفه بينه وبين نفسه بأنه "قاهر لندن" الذي نجح في كل ما فشل فيه صلاح ، مقارنا بينه وبين نفسه ، وهو الذي فعل كل شيء لكي ينتمي إلى هذه المدينة ، بينما ظل الآخر محتفظا بهويته ، متمسكا بأصله ، إنسانا "غير مترجَم" .

وتقبض الشرطة على رجل أسود من أصل إفريقي : "أهورو سيمبا" ، وتوجه إليه الاتهام بأنه القاتل السفاح . ويشترك صلاح في اجتماع عقده الملونون على اختلاف أصولهم ، للدفاع عن "سيمبا" ؛ الذي تركزت حوله قضية الصراع بين البيض والملونين .

ويدعى كل من صلاح وفاريشتا إلى حفل يقيمه بطوطة وصديقته ميمي ، احتفالا بعودتهما بعد الإفراج عنهما . ويلتقي صلاح بفاريشتا في الحفل ، وينشأ بينهما نوع من الصداقة ، أحد جانبيه الإخلاص وحسن النية من ناحية فاريشتا ، وجانبه الآخر إضمار العداوة والانتقام من ناحية صلاح . ويحكي صلاح لفاريشتا حكاية خيانة صديقه له مع زوجته پاميلا ، فيقرر فاريشتا الانتقام من

جمبى ، باعتباره عنصراً شريراً من عناصر الفساد فى هذه المدينة الدنسة . ويختفى فاريشتا فجأة ـ كالعادة ، ثم يعثرون على جمبى مصابا بإصابات بالغة ، وهو بين الحياة والموت ، بعد أن حاول "مجهول" قتله .

وفى أحد الأيام ، يخرج صلاح وفاريشتا للنزهة فى ضواحى لندن ، ويحكى فاريشتا لصلاح عن مقدار حبه لآلى كوهين . ويتطرق إلى ذكر تفاصيل دقيقة عن علاقتهما وأسرارهما الخاصة ، فيختزن صلاح هذه التفاصيل فى ذاكرته ، لكى يستطيع استخدامها فى الانتقام من فاريشتا .

وينفذ صلاح خطته الانتقامية ، فيلاحق كلا من فاريشتا وآلى ـ على مدى ثلاثة أسابيع ـ بمكالمات هاتفية مجهولة ، مستغلا مقدرته الفائقة على تقليد الأصوات واصطناع اللهجات ، فيحطم أعصاب آلى بالحديث عن تفاصيل حياتها الخاصة ، ويثير جنون الغيرة عند فاريشتا ، متظاهرا فى كل مكالمة بأنه عاشق جديد لها ، من بين عشاقها الكثيرين .

وتؤتى هذه الخطة ثمارها ، فيغادر فاريشتا منزل آلى ، التى يرى فيها صورة مجسمة لإلهة الشر والخطيئة ، بعد أن يحطم فى غيابها كل التحف والتذكارات والتماثيل والجوائز التى تعتز بها وتعتبر المساس بها جريمة لا تغتفر . وتعود آلى لتجد بيتها وتذكاراتها على تلك الحالة فتقرر قطع علاقتها بفاريشتا إلى الأبد .

ويتوجه فاريشتا إلى متجر للأدوات الموسيقية ، يملكه جون مسلمة ، ذو الأصابع الست ، رفيق القطار فى رحلته إلى لندن . ويشترى منه مزمارا يحمله فى جيبه ، ويخرجه من حين لآخر ، نافخا فيه ، معلنا للمارة فى الشوارع أنه مَلَك الموت عزرائيل ، جاء ليحصد أرواح البشر .

ويموت المتهم الأسود "سيمبا" فى السجن . وتلفق الشرطة قصة واهية عن وقوعه من فوق السرير وهو نائم ، مما أدى إلى وفاته على الفور . ولكن أحداً لا يصدق هذه القصة ، ويسرى بين

الملونين اعتقاد أكيد بأن الشرطة قد قتلته عمدا ، لكى تخفى عجزها عن إثبات التهمة عليه . ويعزون اضطهاد الدولة له ، إلى مواقفه السابقة ، المناصرة للقذافى والخمينى ، بينما تستمر جرائم القتل بنفس الأسلوب ، مؤكدة أن القاتل مازال حيا طليقا .

وتتصاعد حمّى الكراهية بين البيض والملونين ، إلى أن جاء يوم توجهت فيه مظاهرة من الغوغاء إلى فندق آل سفيان ، فحطمته وأضرمت فيه النار . وفى تلك الساعة بالذات ، يكون كل من صلاح وفاريشتا متجهين ـ بالصدفة ـ إلى الفندق ، حيث تلتقى عيونهما المذعورة لحظة خاطفة ، تكون هى الكافية لكى يدرك فاريشتا فجأة ، أن صلاح ، صاحب الألف صوت ، هو صاحب المكالمات الهاتفية . ويطارده لينتقم منه ، ولكنه قبل أن يصل إليه ، تسقط على صلاح ـ فجأة ـ قطعة كبيرة من الخشب المشتعل ، فتكسر ذراعيه وتثبته إلى الأرض عاجزا عن الحركة ، مهددا بالموت حرقا . وفى هذه اللحظة ، يتقدم فاريشتا ، لا ليجهز على صلاح كما كان ينوى ، بل ليرفع الخشبة من فوقه ، وينقذ حياته فى شهامة "ملائكية" ، معلنا انتصار الحب والمغفرة ، والعفو عند المقدرة .

ويموت صاحبا الفندق ـ سفيان وزوجته هند ـ محترقين ، بينما تنجو ابنتاهما اللتان كانتا خارج المنزل .

ويموت أيضا جمبى وپاميلا ، حيث تعقّبتهما عصابة من الغوغاء البيض ، وهما ذاهبان متسللان ليلا إلى المكتب الذى تعمل فيه پاميلا ، لتصوير مستندات هامة تثبت براءة المتهم القتيل سيمبا . فتحرق العصابة المكتب والعاشقين والمستندات جميعا .

(وفى هذا الموضع ، يدخل فاريشتا فى بقية رؤياه التناسخية الرابعة ، الباب الرابع والأخير من الرسالة ، الذى يسميه المؤلف : انشقاق البحر العربى) .

الفصل الخامس :

المصباح العجيب

بعد نجاة صلاح من حادث الفندق بعام ونصف ، تصله برقية من زوجة أبيه ، بأن أباه على فراش الموت . فينقلب لديه شعور الكراهية الأزلى إلى إشفاق على أبيه ؛ ويكتشف فجأة أنه يحبه رغم كل شىء ، فيسافر متوجها إلى بومباى .

وفى الطائرة تطالعه الصحف الهندية بالوجه القبيح الذى لا يرى غيره لوطنه ، أنباء عن مذبحة للمسلمين ، وصور للافتات التى علقها الهندوس على أحد المساجد إلخ .. وحتى إعلانات الزواج لا يرى منها إلا تباهى الآباء المعلنين عن بناتهم ، بأنهن "قمحيات" ذوات سمرة فاتحة ، تعاليا على الأغلبية الداكنة السمرة .

ويصل إلى المنزل القديم ، ليجد فى استقباله كلا من زوجة أبيه الثانية التى تحمل اسم أمه ، وعشيقته الخادم القديمة التى تحمل ملامحها وترتدى ثيابها ، وهما تتعاونان فى العناية بالرجل المريض . ويجتمع الإبن وزوجة الأب وعشيقته على فراش الرجل المشرف على الموت ، فى مودة خالصة ووئام عائلى تام .

وتفشل محاولات صلاح المستميتة فى إنقاذ أبيه من السرطان الذى استشرى فى جسده ، فيموت وهو يؤكد لولده أنه لم يكن قط مؤمنا بشىء ، وأنه ليست لديه أى "أوهام" عن العالم الآخر .

ويرث صلاح عن أبيه ثلث ثروته ، التى أوصى بثلثيها الآخرين إلى زوجته وعشيقته بالتساوى ، ولم ينس أن يضع فى نصيب

صلاح مقلبا جديدا من مقالبه التى اعتاد أن يوقعه فيها ، عبارة عن عقار قديم مثقل بمطالبات الضرائب وغيرها ، وأن يجعل قبوله لذلك المبنى شرطا لحصوله على بقية نصيبه من التركة .

ويرث أيضا عن أبيه مصباحه القديم الذى يشبه مصباح علاء الدين ، فيلمسه لأول مرة ، ويحكه وهو يطلب أمنية واحدة ، أن يرى زينات وكيل ، صاحبته القديمة . فتظهر زينات فجأة وكأنها خرجت من المصباح ، ويعاودان علاقتهما القديمة . وتستمر زينات فى محاولات إقناعه بالبقاء فى الهند ، وأن يعود إلى انتمائه الحقيقى ، وأن يحس بمشاكل شعبه وآلامه ، وأن يشترك معها فى نشاطها السياسى ، فضلا عن الاهتمام بثروته الموروثة ، التى أعفته من العمل الشاق بأجر قليل ، فى بلاد الناس .

أما عن فاريشتا ، فقد عاد هو أيضا إلى الهند ، بعد أن فشل فيلماه الأخيران عن "انشقاق البحر العربى" ، و"ماهوند" ، وبعد انطفاء شهرته وأفول نجمه فى عالم السينما .

وتذهب آلى كوهين إلى الهند ، لتقوم بمحاولة إعجازية جديدة لتسلق قمة ايفرست ، تفوق كل محاولاتها السابقة ، حيث تحاول أن تصعد القمة الأخيرة للجبل وحدها ، دون رفيق أو مساعد . ويصاحبها فى رحلتها إلى الهند ، المنتج السينمائى "سوسيديا" ، الذى توثقت علاقتها به بعد انفصالها عن فاريشتا .

ويقتل فاريشتا آلى وصديقها ، بإلقائهما من فوق تلك العمارة الشاهقة "ايفرست" ، من نفس المكان الذى كانت قد انتحرت منه "ريخا" حزنا على فاريشتا ، بعد أن ألقت بأولادها الثلاثة .

ويهرب فاريشتا من مطاردة الشرطة ، ويذهب إلى صلاح فى بيته القديم ، حيث يؤكد له أنه لم يقتل آلى وصديقها ، وإنما قتلتهما "ريخا" ، أو شبحها الذى يركب البساط الطائر .

وتنتهى القصة بانتحار فاريشتا أمام صلاح وزينات ، بمسدس كان قد أخفاه ـ فى غفلة من صلاح ـ داخل المصباح السحرى .

تقييم الرواية

قبل أن نتطرق إلى عرض أبواب "الرسالة" ، أستأذن القارىء فى أن نتوقف قليلا لنلقى نظرة على الرواية من جانبيها الفنى والموضوعى :

القيمة الفنية :

القيمة الفنية للرواية ـ خلافا لما أشيع عنها فى بعض أوساطنا الأدبية ، قيمة زهيدة لا تدخلها ضمن الأعمال الكبيرة أو الجيدة أو حتى فوق المتوسطة . وليس هذا رأيى وحدى ، بل قد وجدت عليه إجماعا ممن عرفتهم من قارئى هذا الكتاب ، وكلهم من دارسى الأدب ومتذوقيه ونقاده الجادين .

فبناء القصة ـ كما يرى القارىء ـ شديد التعقيد ، ملىء بالفواجع والكوارث والمفاجآت المفتعلة جميعها ، مما ينبىء عن قلة حيلة الكاتب ، ولجوئه إلى الصدمات المتكررة المبالغ فيها ، لإثارة اهتمام القارىء أو استثارة مشاعره .

كما أن نسيجها الدرامى الأساسى مهلهل ، وخاصة فى الموقف الرئيسى ، موقف الصراع النهائى بين بطلى القصة . فالموقف برمّته عالة على قصة عطيل الشكسبيرية المعروفة ، مع فارق شاسع بين معالجة شكسبير المنطقية التى تتطور فيها الأحداث مع تطور الموقف النفسى لبطل الرواية ، وبين معالجة رشدى المفتعلة المبتورة .

ففى عطيل شكسبير ، يتطور موقف عطيل النفسى فى تصاعد تدريجى من الثقة المطلقة فى حبيبته "ديدمونة" ، إلى التكذيب العنيف لدسيسة "ياجو" ، إلى الشك فى احتمال صحة ادعائه بخيانتها ، إلى التحقيق مع ديدمونة بسؤالها عن المنديل إلخ ..

إلى غلبة الشك على الثقة ، إلى اليقين الكامل بخيانتها مع بقية من حب وإشفاق نحوها ، إلى الكراهية المطلقة والإدانة الكاملة ، إلى تحديد العقوبة وتوقيعها . تصاعد تدريجي منطقي يتمشى مع طبيعة النفس البشرية وطبيعة الشخصية التى يعرضها .

أما فى عطيل رشدى ، فنرى فاريشتا ينقلب فجأة من الحب الجارف والثقة المطلقة إلى الكراهية المطلقة والرغبة فى الانتقام ، دون مرور حتى بمرحلة التحقيق أو الارتياب فى صحة الوقيعة التليفونية المجهولة .

كما أن الفارق بين النهايتين هو الفرق بين الكاتب العملاق الذى يترك شخصياته تتصرف وكأنها تتحرك وحدها بغير إرادة منه ، بما يمليه عليها تكوينها وتصاعد الموقف الذى تواجهه ، وبين الكاتب القصير القامة الذى يتدخل لتحريك شخصياته لخدمة الرأى والموقف الذى يتبناه . ففى عطيل شكسبير ، يقتل عطيل ديدمونة ، بعد أن أيقن بخيانتها بناء على أدلة لا تقبل الشك ، ثم يكتشف خيانة ياجو ، والدسيسة التى دفعه بها إلى قتل أحب الناس إلى قلبه ، ودوافعه النفسية من الحسد إلخ .. التى دفعته إلى حبك خيوط هذه المكيدة ، فيحاكمه أيضا محاكمة قاسية ينتهى منها إلى اعتباره المجرم الحقيقى المستحق للعقاب ، فيقتله ، ثم يحاكم نفسه ثالثا - على ما وقع فيه من دسيسة هذا الخائن ، ويندم على تسرعه بقتل حبيبته ، ويعاقب نفسه على ذلك بالموت .

أما عطيل رشدى ، فإنه يعاقب حبيبته عقابا لا يصل إلى القتل ، بعد دسيسة هزيلة غير مقنعة ، ثم يكتشف خيانة ياجو "صلاح". بطريقة هزيلة أيضا وغير مقنعة ، فينوى - ينوى فقط - أن يقتله عقابا على خيانته . ولكن المصادفة البحتة توقع ياجو فى براثن الموت ، فيهب عطيل لإنقاذه بدل أن يجهز عليه . وهو موقف غير مبرر ، خاصة من جانب هذا الشخص المتهوس المتعطش إلى الدماء ، الذى لا يتردد فى قتل أناس لم يؤذوه هو شخصيا فى

شيء ، لمجرد الرغبة فى تطهير العالم من شرهم ، فما بالك بمن كان السبب فى الوقيعة بينه وبين حبيبة عمره .

ثم يفاجأ القارىء بنفس هذا العطيل ، بعد ان اكتشف أن حبيبته كانت ، كما كان هو نفسه ، ضحية بريئة لدسيسة شيطانية ، يفاجأ به يقتل حبيبته بغير سبب مفهوم ، بعد عام ونصف من القطيعة بينهما ، لم يحاول خلالها الاعتذار لها أو توضيح موقفه أمامها .

ثم يفاجأ به مرة أخرى ، يقف أمام ياجو "صلاح" ، وفى يده مسدس محشو أخفاه فى المصباح . ويخرج هذا المسدس ، وبدلا من أن يقتل غريمه الحقيقى ، السبب الأصلى فى هذا المأساة ، إذا به يقتل نفسه تحت أقدامه ! نهاية مفتعلة ليس المقصود بها التطور الدرامى المنطقى ، المتوقع من شخصيات حقيقية حية ، بل المقصود هو وضع نهاية عقابية ، تعبيرا عن إدانة الكاتب لموقف فاريشتا طوال الرواية ، بينما يبقى صلاح حيا ، تأكيدا لانتصار وجهة النظر التى يمثلها .

فالكاتب يستخدم النهايات التى يختارها لشخصيات روايته ، كوسيلة لتوقيع العقوبة المناسبة على هذه الشخصيات ، دون نظر إلى البناء الدرامى للرواية . فهو مثلا يعاقب المبشر الأمريكى الذى يثرثر مهاجما لنظرية داروين ، يعاقبه بقطع لسانه ، لسانه فقط .. الذى يثرثر به . ويعاقب پاميلا وصديقها چمچى على خيانتهما لصلاح بالموت حرقا لأسباب خارجة تماما عن سياق القصة . ثم يعاقب صاحبة الفندق وزوجها بعقوبة الحرق أيضا ، لا لجريمة ارتكباها ، وإنما لأن اسميهما هما : هند ، وسفيان ، أبغض الأسماء إلى قلب المؤلف . فهو لا يعنى إحراق جسديهما ، وإنما يتشفى بإحراق هذين الاسمين ، وهكذا .

المحتوى الموضوعى للرواية :

موضوع الرواية ، وهو ما يهمنا بالدرجة الأولى منها ، أهو

الإنسان الشرقى ، والمسلم على وجه الخصوص ، الذى وجد نفسه فى مواجهة مباشرة مع المجتمعات الأوروبية الحديثة . ولهذا الموضوع جانبان ، أو قضيتان ، القضية الأولى هى موقف هذا المجتمع الجديد الذى يعيش فيه من الفرد أو الأسرة الصغيرة التى انضمت إليه ، والقضية الثانية هى موقف الإنسان نفسه مع المجتمع الجديد .

أما بالنسبة للقضية الأولى ، فمن الإنصاف أن نقول إن الكاتب قد أجاد التعبير عن هذه القضية ، ونقل إلى القارىء صورة جديدة عن أحوال الملونين فى انجلترا ، وتصاعد المشكلة العنصرية فيها ، والمشاكل التى يعيشها أبناء شبه القارة الهندية بالذات . وإن كان من الصعب الحكم على صحة التفاصيل التى يرويها ، خاصة وأن المؤلف نفسه طرف من أطراف القضية ، إلا أن الصورة العامة تبدو جيدة ، والتعبير الذى يعبر به عنها تعبير قوى وعادل ، وخاصة الصورة الكاريكاتيرية التى رسمها عن اضطهاد الدولة للمهاجر المتسلل عبر الحدود ، أو من يشتبه فى تسلله ، ومعاملته باعتباره شيطانا فى صورة إنسان ، بل حتى فى صورة حيوان أعجم ، لا يستحق أقل قدر من الرحمة أو العدالة أو حتى الإنصات إلى دفاعه عن نفسه .

وقد بدأت المشكلة العنصرية تتصاعد فى إنجلترا منذ السنوات التالية للحرب العالمية الثانية مباشرة ، مع تزايد هجرة الآسيويين من بلدان الكمنولث البريطانى والمستعمرات السابقة التى أخذت فى الانفصال عن الإمبراطورية التى كانت الشمس لا تغيب عنها ، بحثا عن فرص العمل وإمكانيات الرخاء . ثم تصاعدت بشكل سريع حاسم فى أواخر الستينيات ، حين أخذت الحكومة البريطانية تقيم العراقيل فى وجه المهاجرين إلى "البلد الأم" ، والذين كانوا يحملون جوازات سفر بريطانية باعتبارهم رعايا بريطانيين أو مواطنين فى دول الكمنولث .

ووصلت الأزمة إلى أقصاها عندما حددت الحكومة البريطانية

موعدا أقصى ، يصبح بعده جواز السفر البريطاني الذي يحمله مواطنو الكمنولث لاغيا ، إلا لمن يكون - قبل ذلك الموعد الأقصى - مقيما بالفعل في بريطانيا . وتزاحم المهاجرون يملأون المطارات والموانئ ، ويستخدمون كل الطرق الممكنة ليدخلوا إلى بريطانيا قبل أن تصبح جوازات سفرهم لاغية . وكان أغلب أولئك المهاجرين من ذوي الأصول الآسيوية ، ومن شبه القارة الهندية بالذات ، ومن الذين كانوا يعيشون كمغتربين في بلاد القارة الإفريقية الوسطى والجنوبية ، تحت ظل جواز السفر البريطاني الذي يحملونه .

وقفز عدد الملونين المهاجرين في تلك الفترة من ربع مليون إلى مليون وربع ، تتركز أغلبيتهم الساحقة في المدن الكبرى - وخاصة لندن ، ويشكلون أزمات حادة في العمالة والإسكان إلخ .. وبدأت إنجلترا ، التي كانت تفخر على بلاد مثل الولايات المتحدة بأنها تخلو من المشكلة العنصرية ، تعاني من هذه المشكلة بكل ملامحها المعروفة ، من التفرقة في العمل وفي عضوية النقابات ، وكراهية العامّة للمهاجرين باعتبارهم مزاحمين لهم - بأجورهم الرخيصة - على فرص العمل ، واضطهاد أجهزة الدولة لهم باعتبارهم مصدراً للمشاكل ومثاراً للشكوك ، سواء في سلوكهم أو في شرعية دخولهم إلى البلاد ، ثم باعتبارهم أناسا من نوع أدنى .

ومن المعروف أن المؤلف - مثله مثل شخصية روايته الأولى صلاح - قد عاش هذه الفترة نفسها - الستينات - في بريطانيا ، وهي الفترة التي حصل فيها على الجنسية البريطانية ، قبيل قدوم طوفان المهاجرين ، ولذلك فقد أجاد وصف هذا الجانب - أو هذه القضية - من المشكلة .

أما القضية الأخرى ، قضية موقف الإنسان الشرقي - والمسلم خاصة - من الحضارة الأوروبية الغالبة ، فهي قضية سابقة على هذه المشكلة وأمثالها ، كما أنها لا تقتصر على المهاجرين إلى بريطانيا فقط ، ولا على المهاجرين إلى دول الغرب من ألمانيا إلى

أستراليا وحدهم ، وإنما هى تمس بدرجة أو بأخرى ، حتى الشرقيين الباقين فى بلادهم لم يبرحوها أو لم يهاجروا منها . ولا شك أن زيادة الاحتكاك بين الجانبين بشتى صور الاحتكاك كان له أثر كبير على احتدام هذه المشكلة ، ولكنها أقدم من هذه الأحداث المعاصرة ، يمكن أن نؤرخ لبدايتها بصورة تقريبية ، وبالنسبة للبلاد العربية وبلاد الشرق الأوسط خاصة ، بالحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .

ومنذ ذلك الحين ، اتخذت هذه القضية صورا متعددة للتعبير عن الحيرة التى يقع فيها الإنسان الشرقى ، بين انبهاره بالنتائج المادية للحضارة الغربية ، وبين رفضه للقيم الاجتماعية والأخلاقية المصاحبة لهذا التقدم ، والتى لا يمكن فصلها فصلا تاما عنه . وتردده بين الانصهار الكلى فى الحضارة الجديدة ، والانتماء إليها انتماء تاما ، وبين التمسك بقيمه التى يحملها معه من "البلد القديم" ، والتى من الإنصاف أيضا أن نقرر - بغير تعصب - أنه لم يجد لها بديلا مرضيا أو مقبولا لدى الحضارة الجديدة . فهى رغم اكتظاظها ماديا وعلميا ، جوفاء عجفاء من الناحية المعنوية ، وهذا هو التناقض الأساسى فيها .

وقد ظهرت كما قلنا صور كثيرة مختلفة ، تعبر عن مواقف متباينة ، من صور الكتابة الأدبية والتقريرية ، تناقش هذه القضية : ابتداء من الجبرتى ورفاعة الطهطاوى ، إلى طه حسين ويحيى حقى .. إلى حسين أحمد أمين وغيره من الكتاب المعاصرين ، تظهر فيها هذه القضية ، بصورة متزايدة ، باعتبارها أزمة مزمنة ، حتى أصبحت تمثل القسم الأكبر من هموم الإنسان الشرقى المعاصر ، والمثقف على وجه الخصوص .

ونعود إلى قصة سلمان رشدى ، فنجد أنه قد اختار للتعبير عن هذه الأزمة ، طريقة المعارضة ، أو المقابلة ، بين شخصيتين : كل منهما يتبنى موقفا هو النقيض المباشر لموقف الآخر ، فالأول

"صلاح" ، يتبنى موقف الانصهار التام فى الحضارة الغربية ، حتى قبل أن يغادر بلاده . يعتقد أن مستقبله الوحيد هو فى أن يصبح جزءاً لا يتجزأ من هذه الحضارة ، بتقدمها العلمي والتقني والفني ، وأيضا بكل ما فيها من انحلال أخلاقي وتفسّخ اجتماعي . وكلّ ما يطلبه من الدنيا ، أن ينسى الناس في إنجلترا - أرض أحلامه - سواد وجهه وملامحه الهندية ، وأن يعتبروه بصورة ما ، رجلا أبيض . فهو وإن لم يكن أبيض بلونه ، إلا أنه أبيض مثلهم تماما ، بفكره وثقافته ولغته ، وتسامحه الأخلاقي ، وتنازله - عن رضى - عن كل ما يربطه بالعالم القديم من مشابه أو أفكار أو قيم أو عقائد . أو في كلمة : غراب أبيض!

(تحكي القصة القديمة أن غرابا تمنّى أن يصبح حمامة ، فطلى نفسه بطلاء أبيض ، وطار إلى برج الحمام ، وهو يغني بصوت كالصرير ، يقلد به هديل الحمام . ولكن الحمام ضربه وطرده ، فعاد إلى جماعة الغربان ، ولكنهم أيضا أنكروا لونه الأجرب وصوته المزعج فطردوه من شجرتهم . فظل يتنقل بين برج الحمام وشجرة الغربان ، تضربه هذه بمناقيرها وتصفعه تلك بأجنحتها ، حتى مات .. ولم يحزن عليه أحد) .

وفى مقابل هذه الشخصية الغرابية - شخصية صلاح - يضع الكاتب شخصية مناقضة لها تماما ، إنسانا متهوسا بين الجنون والغيبوبة ، متعصبا يحمل مفاهيمه الدينية المهوّشة ، وأساطيره الخرافية الغائمة المتداخلة ، ويريد أن يفرضها فرضا على ذلك المجتمع الغربي ، شاهرا سيفه فى "دون كيشوتية" مجنونة ، ليطهر هذه المدينة الآثمة من الدنس .

حتى بناء هذه الشخصية المريضة نفسها ، يشوبه كثير من التناقض الذى حشره المؤلف حشرا ليزيد من كراهية القارىء له ، من إستمرائه لطريقة الحياة الغربية وانحلالها الأخلاقى فى ممارساته الشخصية ، سواء فى بومباى أو لندن ، وأكله لحم

الخنزير علنا ، وفقدانه إيمانه بالله بعد حادثة المستشفى ، ثم استرداده لهذا الإيمان بصورة متهوسة مجنونة .. خليط متناقض غير منطقى .

ومن الواضح أن المؤلف منحاز بشكل كامل إلى شخصية الغراب الأبيض وموقفه ، يميل بكل ثقله ، كمؤلف وصانع لهذه الشخصيات والأحداث ، إلى جانب هذه الشخصية ، إذ يضع فى مواجهتها شخصية المتعصب المتهوس ، وكأنها البديل الوحيد عن شخصية الغراب الأبيض ، متجاهلا الموقف الذى تتخذه الغالبية العظمي من المهاجرين من البلاد الشرقية والإسلامية إلى بلاد الغرب ، وهو موقف الائتلاف والتفاعل الكامل مع الجوانب المضيئة لتلك الحضارة ، مع التمسك بالقيم الأصلية والعقائد الصحيحة التى حملوها معهم قبل أن يهاجروا أو يهاجر آباؤهم ، لا من قبيل الاقتناع بتلك القيم والعقائد فحسب ، بل باعتبارها التعبير الوحيد الصحيح عن هويتهم وشخصيتهم فى تلك المجتمعات الجديدة .

وفى سبيل الدفاع عن الموقف المتطرف الذى يتبناه المؤلف ، يلقى أيضا بكل كراهية القارىء فى وجه المتهوس السفاح القاتل الخائن ، بينما يستدر عطف القارىء على الغراب الأبيض المسكين ، الضحية المظلومة ، الذى يعانى من أول لحظة ، من اضطهاد أبيه وسفالته ، ثم من خيانة صديقه واضطهاد الشرطة ، ثم من خيانة زوجته وصديقه إلخ ... وفوق ذلك يلقى المؤلف بثقل الرؤى التناسخية (موضوع الرسالة) فى ميزان المتهوس فاريشتا ، مع أن مكانها الطبيعى ، بما فيها من هجوم شرس على المعتقدات الإسلامية ، هو أن تكون جزءا من عقيدة الغراب الأبيض ، الكاره لقومه ولكل ما يربطه بهم ، لا من عقيدة المتعصب الذى يخرج بسيفه المسلول ليدافع عن دينه وقيمه الأصلية بطريقته .

والحقيقة أن انحياز الكاتب إلى شخصية "صلاح" فى القصة

هو انحياز إلى نفسه هو ، إلى شخصه هو ، وإلى الموقف الذى اختاره فى الحياة الفعلية . فصلاح ـ فى القصة ـ هو صورة مطابقة تماما لشخصية سلمان رشدى فى الواقع . فالمؤلف ـ مثل صلاح ـ مهاجر هندى من مواليد بومباى ، استقر فى إنجلترا منذ كان فى الرابعة عشرة ، منتم إلى أسرة مسلمة ـ أو تنتسب إلى الإسلام ، تعلم فى إنجلترا حتى حصل على شهادة جامعية من جامعة كامبريدج ، فى الأربعين من عمره تقريبا عند كتابة الرواية ، يتقن الإنجليزية كأهلها أو أفضل ، قدير فى نحت الكلمات واختراع التعابير المركبة فى تلك اللغة ، اشتغل بالتمثيل مدة ثم تركه بعد أن فشل فى أن يصبح ممثلا مشهورا ، ثم عمل فى وكالة للإعلانات ، وتزوج من سيدة إنجليزية بيضاء ، وعاش معها مدة لم ينجبا فيها أطفالا ، ثم انفصل عنها واتخذ له صاحبة أخرى : من بلاد العم سام ـ لا من الهند هذه المرة .

وهو فوق ذلك ، وقبل ذلك ، منتم بكل جوارحه وكل ثقافته إلى الفكر الغربى والمفاهيم الأوروبية ، حتى عن الإسلام نفسه ، وعن تاريخ المسلمين وعاداتهم ، يستمد معلوماته وأحكامه من كتابات الغربيين وأحكامهم . فهو فى الحقيقة غراب أبيض تام الغرابية . ولذلك كان من الطبيعى أن يتبنى ويتعاطف وينحاز بكل كيانه ، إلى موقف الغراب الأبيض فى صورته العصرية : صورة "سالادين شامشا" ، أو "صلاح الدين شمس الله" .

ولا يقتصر خطأ المؤلف ـ أو خطيئته ـ فى اختيار هذا الموقف الغرابى والدفاع عنه ، على الناحية الأخلاقية والمبدئية فقط ، وإنما هو اختيار خاطىء من الناحية العملية والمصلحية أيضا ، فهو لا يؤدى إلا إلى طريق مسدود ، لا مخرج منه ولا رجوع فيه . فالمسألة من الناحية العملية ليست متوقفة على قبول المغترب الشرقى للمفاهيم الغربية فحسب ، بل هى متوقفة بالدرجة الأولى على قبول الأغلبية البيضاء المسيحية للغرباء عنها فى اللون أو الدّين أو العنصر ، والتى تتخذ موقفا شديد التصلب والتعصب ـ

والتخلف فى الحقيقة ، من هذه الأقليات ، وخاصة فى بلاد الغرب المتقدمة مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا وكندا إلخ ..، تحاصرها كجسم غريب داخل كيان الأمة ، ولا تسمح لها أبدا بأكثر من مكان المواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة ، مهما بلغت درجة ذلك المواطن من العلم أو الثقافة أو الثراء ، أو حتى الانتماء ، ومهما طال الزمن بالأجيال المتعاقبة من المغتربين . حتى لو غير دينه واعتنق المسيحية ، حتى لو أصبح قسيسا فى الكنيسة ، يظل أبدا كائنا غريبا منبوذا . وليست قضية القس ، القديس ، مارتن لوثركنج عنا ببعيد . كما أن مسألة الكنائس السوداء ، التى لا يسمح للملونين بالصلاة فى غيرها ، ليست خافية على أحد .

على عكس المجتمعات الشرقية والإسلامية خاصة ، التى تتميز بظاهرة "البوتقة" القادرة على صهر كل وافد عليها ، وهضمه واعتباره جزءا من جسم الأمة ، لا يلاحظ أحد ـ مجرد ملاحظة ـ أنه غريب عنها . ولاشك أن منشأ هذا التقليد هو أساساً فى الشعارات التى رفعها الإسلام من أول يوم ، والتى تعتبر الفيصل والمحك الوحيد للنظر إلى الإنسان كجزء من الجماعة ، هو بما يفعله وما يقوله ، لا بلون وجهه أو شكله أو أصله العنصرى .

والعنصرية البيضاء ليست موقفا مرحليا أو مؤقتا ، يرتبط بفترة زمنية معينة ، أو يتأثر بالنظم الاقتصادية والسياسية والطبقية ، أو يتوقف على إجراءات معينة كإجراءات إلغاء جواز السفر ، وإنما هى الدين الحقيقى للمجتمعات الغربية ، وهى الحقيقة الكبرى فيها . موقف ثابت متأصل فى نفوسهم ، اكتسبوه من تراث طويل من الآداب والأعمال الفكرية التى تعتبر الحضارة الحالية "حضارة الرجل الأبيض" ، وتلغى ، أو تحاول أن تلغى كل دور فيها للأمم الأخرى ، التى لا تنظر إليها إلا نظرة التحقير والاستهزاء . كما تحاول بالتالى أن تعتبر ثمار هذه الحضارة ملكا خالصا للرجل الأبيض ، ليس لغيره أن يشاركه فيها إلا بالقدر الذى يسمح له به .

فالمؤلف فى الحقيقة ، يجرى وراء وهم زائف ، ويضيع وقته عبثا فى طلاء ريشه الغرابى باللون الأبيض .. لكى يصبح حمامة .

الباب الثانى :

الرسالة

الرؤيا التناسخية الأولى :

ماهـونـد

تقديـم :

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الباب من الرسالة ، هو بيت القصيد ، أو مربط الفرس ، من بين جميع أبواب الرسالة وفصول الرواية . ولا أشك لحظة فى أن الكاتب ، وإن كان قد دسه بين فصلين من فصول الرواية ، وكأنه جزء منها متمم لأحداثها ، إلا أنه كان ، هو والباب الثالث المكمل له "عودة إلى جاهلية" ، هما أول شىء سوّده من صفحات الكتاب كله . بل هما الهدف الأول أو الوحيد الذى حدا به إلى أن يمسك القلم ويبدأ فى تأليف الكتاب ، ثم جعل الأبواب الباقية من الرسالة ، وفصول الرواية جميعها "ديكورا" يحيط بهما ، ليحجب عن القارىء حقيقة قصده ، تحت ستار "سيكولوجيا الأحلام" وغيرها من الحجج والأعذار الواهية .

ونتوقف ـ قبل استعراضنا لموضوع هذا الباب ـ عند كلمتين استخدمهما المؤلف بكثرة . الأولى هى كلمة "ماهوند" التى جعلها عنوانا للباب واسما تنكريا لشخصية النبى صلوات الله وسلامه عليه ، والثانية هى كلمة "آيات" التى وضعها فى عنوان الكتاب ، واستخدمها أيضا بكثرة فى هذا الباب على وجه الخصوص . ونحن لا نتوقف عند هاتين الكلمتين لأهميتهما اللفظية ، وإنما لما نستدل عليه من اختياره لهما .

وكلمة "ماهوند" .هي في الأصل تحريف لاسم رسول الله "محمد" صلى الله عليه وسلم . بدأت قصتها عندما عجزت ألسنة الأوروبيين عن نطق حرف الحاء ، فخففوا الكلمة إلى "ماهومت" . ثم خطر لهم أن يقلبوا هذه الكلمة الأخيرة ، التي لا تعني شيئا في لغاتهم ، إلى لفظة قريبة منها ، تحمل معنى التحقير والزراية على شخص الرسول الكريم ، فحولوها إلى "ماهوند" . وهي كلمة من مقطعين : أولهما "ما" ، وهي ضمير للملكية في الإنجليزية القديمة ، وثانيهما "هوند" ، وتعني في الألمانية "الكلب" ، وفي الإنجليزية كلب الصيد على وجه الخصوص . أي أن الكلمة بمقطعيها تعني عندهم ـ لعنهم الله ـ "كلبي" .

وقد استخدمها على هذه الصورة وبهذا المعنى ، الكثير من كتابهم المتعصبين الحاقدين على شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن بينهم ، على سبيل المثال ، الكاتب الصليبي أسود القلب "والتر سكوت" ، الذي فصّل معناها على هذا الوجه الذي ذكرته ، في رواية له مشهورة اسمها "الطلّسم" ، بطلها صلاح الدين الأيوبي ("سالادين" عندهم) وموضوعها الحروب الصليبية .

ويعنينا في هذا المجال ، استخدام مؤلف الكتاب ، المتسمي باسم عربي إسلامي ، لهذه الكلمة ، مع ما يبدو جليا من اطلاعه الواسع على الآداب الغربية والإنجليزية على وجه الخصوص ، ومع معرفته للمعنى الحرفي لكلمة "محمد" ، التي شرحها في عبارة طويلة للقارىء الإنجليزي ، ومع أنه في موضع آخر ذكر الألفاظ الثلاثة متتالية متلاحقة "محمد ، ماهومت ، ماهوند" ، مما يؤكد معرفته بقصة تطور هذه الكلمة على ألسنة كتاب الغرب وأقلامهم .

الكلمة الثانية : هي كلمة "آيات" ، ويعني بها آيات القرآن الكريم . والترجمة الإنجليزية المصطلح عليها هي كلمة VERSES , التي تعني حرفيا : أبيات الشعر أو المقطوعات

الشعرية . وهى ترجمة ـ على شيوعها ـ خاطئة جدا . فالمعروف أن كلمة "آية" تعنى فى اللغة العربية : الدليل أو البرهان أو كل ماهو بديع من صنع الله سبحانه ، وليس لها علاقة بالشعر أو الأبيات الشعرية .

ولكن ، يبدو أن مستشرقا ما ـ فى زمن ما ـ عزّ عليه أن يترجمها بهذا المعنى الشريف إلى لغته ، أو حتى أن يتركها على حالها ويكتبها بالحروف اللاتينية كما ينطقها أصحابها ـ مثل كلمة "قرآن" مثلا ، فاختار لها هذا اللفظ المضلل ، الذى يسوّى بين الآية الشريفة من كلام الله ، وبين بيت الشعر الموزون المقفى من كلام البشر . ثم جرى استخدام هذه الترجمة السقيمة المغرضة فى الكتب الإنجليزية ، كلما ذكرت آيات القرآن الكريم .

وقد سقط سلمان رشدى ـ عن تعمّد أو عن غفلة ـ فى هذا الفخّ الاستشراقى ، فاستخدم نفس الكلمة للدلالة على الآيات القرآنية . وعلى أبيات الشعر جميعا . بل زاد على ذلك أن أجرى على لسان الشخصية التنكرية التى أراد بها الدلالة على الرسول الكريم قوله : إنه وإن لم يكن هو نفسه شاعرا ، إلا أنه ينطق "بالأبيات الشعرية" التى يوحى بها إليه الملاك جبريل ، فحقق المؤلف الهدف الذى أراده المستشرق القديم ، بالإيهام بأن القرآن لا يعدو أن يكون "أبياتا من الشعر" . مع أن من يعرف أقل القليل عن العربية أو الإسلام ، يعلم أن بناء الآية القرآنية ـ فضلا عن معانيها ـ لا يمتّ إلى بناء البيت من الشعر بأى صلة .

ومغالطات لفظية أخرى ابتدعها المؤلف ، ناسجا على منوال ذلك المستشرق القديم ، منها تسميته الإسلام بالإنجليزية "SUBMISSION" ومعناها الحرفي "الخضوع" . وشتان ما بين الكلمتين ، وإن تقاربتا فى المعنى تقاربا ظاهريا . شتان بين عِزّ التسليم والتفويض للخالق سبحانه ، وبين ما توحى به كلمة الخضوع من ذلّة وهزيمة وانكسار . ومنها ترجمته لمهنة النبى

صلى اللــه عليــه وسلم قبـل البعثــة ، حيث يسميــه "BUSINESSMAN" ومعناها الحرفى : "رجل أعمال" ، بما توحى به هذه الكلمة من معانى الطمع والانتهازية وعبادة المال والمساومة إلخ ... على عكس المعنى الأصلى "للتاجر" ، "والتجارة" بما تعنيه من معانى الشرف والأمانة والارتحال فى طلب الرزق . ومنها تسميته للكعبة المشرفة "معبد الحجر الأسود" ، ليوحى إلى القارىء أنها ضرب من المعابد الوثنية التى تعبد فيها الأحجار .

أردت بهذه الأمثلة فقط أن أبين للقارىء ما يفعله الكاتب المغرض ، عندما ينفرد بقارىء لا يعرف العربية أو لا يجيدها ، من التمويه بكلمات تبدو لأول وهلة ، وكأنها مرادفات للكلمات الحقيقية الدالة على المعانى الأصلية .

أما عن موضوع الباب ، فهو (قصة الغرانيق) المنسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

واستأذن القارىء فى أن أروى هذه القصة كما وردت فى كتب التراث العربى الإسلامى ، قبل أن نتطرق إلى الصورة التى حكاها بها صاحب الآيات - أو الأبيات - الشيطانية .

قصة الغرانيق فى التراث الإسلامى

تروى بعض كتب الحديث والتفسير والتاريخ الإسلامية هذه القصة ، رغم كذبها البين وتلفيقها الصريح - كما سنرى ، من باب أمانة النقل التى التزم بها علماء المسلمين . يرويها على سبيل المثال : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه[1] ، والحافظ ابن كثير فى تفسيره الكبير[2] ، ويشير إليها صاحب "لسان العرب" إشارة مقتضبة فى مادة "غرنق" (والغرانيق فى اللغة هى الحجارة البيضاء) .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك - الجزء الثانى - طبعة مؤسسة الأعلمى - بيروت ص ٧٥ إلى ٧٧

(٢) تفسير القرآن العظيم - الجزء الثالث - طبعة عيسى الحلبى - ص ٢٢٩ وما بعدها .

وسأروى هذه القصة ، كما رواها وعلق عليها الحافظ ابن كثير ، فى تفسيره للآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ من سورة الحج : ابتداء من قوله تعالى "**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنَ قَبْلِكَ مِنْ رسول ولا نَبِىٍّ إلّا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فى أُمْنِيَّتِه .. إلى قوله تعالى .. إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمْ**" .

يقول ابن كثير :

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلي أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا . ولكنها (أى : الروايات) من طرق كلها مرسلة (أى : ينتهى إسنادها إلى احد التابعين دون أن يرفع الحديث إلى أحد الصحابة ، وجمهور العلماء لا يحتجون بمثل هذه الرواية) ولم أرها من وجه صحيح ، والله أعلم " (ما بين الأقواس من عندنا) .

ثم يورد عديدا من الروايات التى روت هذه القصة ، سننقل هنا واحدة منها ، رواها بإسناده عن سلسلة من الرواة تنتهى إلى سعيد ابن جبير :

"قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة) النجم . فلما بلغ هذا الموضع : "**أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ والعُزَّى ، وَمَناةَ الثّالثةَ الأُخرى**" ، قال : فألقى الشيطان على لسانه : "**تلك الغرانيقُ العُلى ، وإن شفاعَتَهُنَّ تُرتَجى**" . قالوا (أى : المشركون) : ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم . فسجد وسجدوا . فأنزل الله عز وجل هذه الآية : "وما أرسلنا من قبلك من رسول .. الآية" .

وتختلف الروايات الأخرى التى رواها ابن كثير ، والطبرى ، عن هذه الرواية فى نقاط عديدة . فمنها ما يقول إن الشيطان ألقى بتلك الكلمات على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما يقول : لا بل فى أسماع المشركين . ومنها ما يورد تلك الكلمات الدخيلة

بصور مختلفة مثل : "تلك هى الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى" . كما أن منها ما يشرح الظروف التى وقعت فيها هذه الحادثة المزعومة : من ضيق صدر النبى من أذى المشركين وتكذيبهم ، حتى كان يتمنى هداهم . ومنها ما يضيف إليها أن المهاجرين المسلمين فى بلاد الحبشة ، حين علموا بسجود المشركين وراء رسول الله ، استبشروا وظنوا أنهم آمنوا ، فعاد بعضهم إلى مكة المكرمة .

وقد فند علماء المسلمين هذه الروايات ، وكذبوها تكذيبا قاطعا ، ماعدا عالما واحدا هو ابن حجر العسقلانى الذى صدقها ، وعللها بعلل من بينها تعدد رواياتها . ولكى لا نتوقف عند نصف الحقيقة ، أورد هنا ـ باختصار ـ مقالا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، نشر فى مجلة المنار تحت عنوان "آيات سورة الحج والضلال فى تفسيرها" . وقد أعاد الشيخ محمد رشيد رضا ـ صاحب المنار ـ نشر المقال ضمن كتاب له فى تفسير الفاتحة وسور أخرى . والكتاب مطبوع فى عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) . وقد أطلعنى عليه اخى الأستاذ الدكتور محمد حسنى جابر ـ أستاذ القانون الدولى السابق بكلية الشريعة .

يبدأ الأستاذ الإمام رحمه الله مقاله بمقدمة عن عصمة الرسل فى التبليغ عن رب العزة ، باعتبارها أصلا من أصول الإسلام ، ثم يورد بعض تلك الروايات ، منبها إلى الاختلافات بينها فى نص تلك الكلمات الدخيلة وتفاصيلها الأخرى ، ثم يناقش ابن حجر العسقلانى الذى يحتج بتعدد الروايات كدليل على صحتها ، رغم أنها كلها مرسلة . ثم يذكر الأستاذ الإمام فى شىء من التفصيل ، التناقض بين تلك الروايات ، والأخطاء اللغوية فى تفسير بعض كلمات الآيات الكريمة من سورة الحج ، مما أوقع بعض القدماء فى الخطأ فى فهم الآيات المذكورة . ويقول فى معرض التدليل على بطلان هذه القصة ، نقلا عن الإمام القسطلانى فى شرحه لصحيح البخارى : (وقد طعن فى هذه القصة وسندها غير واحد من

الأئمة ، حتى قال ابن سحق وقد سئل عنها : "**هى من وضع الزنادقة**" ، وكفى فى إنكار حديث أن يقول ابن اسحق إنه من وضع الزنادقة ، مع حال ابن اسحق عند المحدّثين)

ثم يورد الأستاذ الإمام جزءاً من كلام القاضى عياض (فقيه المغرب والأندلس ومحدثهما ـ المتوفى سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) ، الذى أبطل فيه هذا الحديث من أربعة وجوه عقلية ـ بالإضافة إلى ما بيّنه من فساد أسانيدها النقلية . وهذه الوجوه الأربعة هى كما يلى باختصار :

الأول : عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من هذه الرذيلة ، فمن المستحيل أن يتمنى أن ينزل عليه مدح آلهة غير الله ، أو أن يتسوّد عليه الشيطان ويشبّه عليه القرآن ، أو أن يتعمد تغيير كلام الله ، أو حتى أن يسهو فى هذا الأمر العظيم .

الثانى : أن هذا الكلام (أى العبارات الدخيلة) ، لو كان كما روى ، لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم . ولمّا كان النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ، ممن لا يخفى عليه ذلك ، وهو لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟

الثالث : أن هذه الرواية الضعيفة ، لو كانت صحت ، لوجدت فيها قريش واليهود فرصة لا تعوض ، لإقامة الحجة على المسلمين ، ولكانت سببا لفتنة عظيمة بين المسلمين أنفسهم ، وهو مالم يحدث ، ولم يقل به أحد .

الرابع : أن الله سبحانه عصم نبيه من أن يركن إلى المشركين "شيئا قليلا" ، بعد أن "كادوا" يفتنونه ، وذلك بنص الآيتين الكريمتين من سورة الإسراء « **وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا .**

وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ». ومضمون ذلك أن الله عصمه من أن يفترى ، حتى لم يركن إليهم "قليلاً" ، فكيف "كثيرا" ؟

ثم ينهى الأستاذ الإمام مقاله بالدعاء لابن حجر العسقلانى أن يغفر الله له هذه الهفوة ، مؤكدا أن القصة فاسدة من كل الوجوه : لا أصل لها ، ولا عبرة برأى من صدقها .

هذا هو رأى علمائنا الأجلاء فى هذه القصة ذكرته باختصار شديد أرجو ألا يكون مخلاً . ومن أراد التفصيل فليطلبه فى كتب الحديث والتفسير والسيرة ، وينظر المناقشة العقلية الرائعة للقاضى عياض فى كتاب "الشفاء"(١) .

وإذا كان لى أن أعلّق على ماقاله أولئك الأئمة ، فإننى أؤكد على نقطتين وردتا فى مقال الشيخ محمد عبده وكتاب القاضى عياض :

النقطة الأولى : هى قول ابن إسحق أن هذه القصة من وضع الزنادقة .

ويؤكد لدىّ هذا القول ، أن الروايتين اللتين رواهما الطبرى فى تاريخه ، إحداهما ينتهى إسنادها إلى التابعى "محمد بن كعب القرظى" ، والثانية تنتهى إلى نفس التابعى ، مع تابعى آخر هو "محمد بن قيس" . أى أن رواية ونصفا من روايتى الطبرى تنتهى إلى محمد بن كعب القرظى . وهو ابن "كعب بن سُليم القرظى" ، الذى كان فى الأصل يهوديا من يهود بنى قريظة . وعندما غزا الرسول صلى الله عليه وسلم بنى قريظة ، أمر بقتل الرجال البالغين منهم ، ونجا "كعب بن سليم" لأنه كان صبيا لم يبلغ الحلم .

وفى هذه الحقيقة ما فيها من ظلال ثقيلة من الشك تلقيها على

(١) الشفا ، فى حقوق المصطفى ـ المجلد الثانى ـ طبعة استانبول ـ الفصل السادس ـ الباب الأول ـ القسم الثالث ، ص ١١٦ وما بعدها .

رواة هذه القصة ـ أو مؤلفيها فى الواقع ـ ومن بينهم تابعى كان أبوه ـ الذى يرجّح أنه هو الذى لقنه القصة ـ صبيا لم يذهب إلى مكة قبل الهجرة ، ولم ير تلك الحادثة المزعومة ، وإنما رأى رجال قبيلته من اليهود ، وهم يُقتلون عن بكرة أبيهم ، إلا من نجا منهم لصغر سنه ، مثله .

النقطة الثانية : أذكرها توضيحا للوجه الثانى من الوجوه ، أو الأدلة العقلية ، التى نقض بها القاضى عياض هذه القصة ، وهو عدم التئام الكلام المنسوب إلى النبى مع باقى الآيات :

فأنا أدعو القارىء إلى أن يعيد قراءة الآيات القرآنية من سورة النجم التى تقول : "**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذَنْ قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ .. الآية**" .

ثم يقرأها مرة ثانية ، وهو يتخيل أن العبارتين الدخيلتين "تلك هى الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى" ، قد حلتا محل الآيتين الثالثة والرابعة . وأن ينظر هل يستقيم معنى الكلام وروحه على هذه الصورة ؟ أبعد لهجة الاستخفاف والتحقير المتمثلة فى كلمة "أفرأيتم" ـ وخاصة حرف الفاء فيها ، ثم تقسيم الأصنام إلى قسمين ، أولهما من اثنتين ، ثم طرح الثالثة فوقهما بكلمة "الأخرى" ، إمعانا فى الزراية .. أيقبل عاقل أن يأتى بعد هذا الكلام مباشرة ، كلام فيه تعظيم وتمجيد لتلك الأصنام ؟

ثم أدعوه أن ينطق الكلمات التى تنتهى بها الآيات (رءوسها) متتابعة : "العزّى ، الأخرى ، الأنثى ، ضيزى" . وبعد ذلك يعيد نطق هذه الكلمات بعد أن يضع مكان الثالثة والرابعة كلمتى "العلى ، ترتجى" . وينظر هل تستقيم موسيقى الكلام ؟ أم أن هناك نشازا يصكّ أذنه بإقحام تلك الكلمات الدخيلة بين رءوس الآيات ؟

وأسأل القارىء بعد ذلك : هل قرأ أو سمع ، فيما قرأ وسمع من القرآن الكريم ، كلاما فيه مثل هذا الاعوجاج وهذه الركاكة أو قريبا منها ؟ بل هل وجد من بين الأحاديث المروية عن رسول الله ـ وهو بَشَرٌ من الناس ـ كلاما بهذا الضعف والتناقض ، أو حتى فيما سمعه من مأثورات العرب أو أشعارهم القديمة قبل الإسلام وبعده ؟

فإذا كان عقل القارىء العربى المعاصر وذوقه يدركان على الفور مدى التناقض والركاكة اللذين دخلا على الكلام بإقحام تلك العبارات ، أفلم يكن الأولى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فصيح الفصحاء وبليغ البلغاء ، أو بمن يصلّون وراءه من المسلمين الذين تذوقت ألسنتهم وأسماعهم بلاغة القرآن المعجزة ، أو حتى بمن يسمعونه من المشركين ، وهم جميعا أبناء هذه اللغة وحفظة أشعارها وذوّاقو بلاغتها ـ أن يدركوا ما ندركه نحن فى هذا العصر ، فينتبهوا ، أو ينبهوا الرسول ، إلى مافى هذا الكلام من اعوجاج ؟!

فى رايى أن هذا الوجه وحده ، من وجوه منطق القاضى عياض ، كاف للدلالة على فساد تلك القصة ، وعلى كذب رواتها ، بالغا مابلغوا .

• وقد راجعت هذه الآيات على الترجمة الإنجليزية التى ذكرها مؤلف الكتاب ، والتى أشار إلى أنه استمدها من ترجمة "مولانا محمد على" (بطبعة بنجوين ـ لاهور ١٩٧٣) ثم أضاف إليها "لمسات" من عنده . فلم أجد فيها ما وجدته فى الأصل القرآنى العربى من وضوح نغمة الاستخفاف والتحقير للأصنام . ولا أدرى ما إذا كان ذلك عيبا من الترجمة الأصلية التى نقل عنها ، أم من "اللمسات" التى وضعها عليها . فراجعتها مرة أخرى على أوثق ترجمة أعرفها لمعانى القرآن الكريم ، وهى من وضع الشيخ عبد الله يوسف على ـ من كبار علماء الهند ، اعتمدتها لجنة من علماء

الأزهر الشريف[١] . فلم أجد فيها أيضا تلك النغمة المستخفة المستهزئة . والغالب أن المترجم إلى الإنجليزية ، عجز عن أن يجد في تلك اللغة كلمة تقابل كلمة "أفرأيتم" ، وخاصة ـ كما أسلفت ـ حرف الفاء . كما أن كلمة "الأخرى" **ANOTHER** ، تبدو في الإنجليزية باردة جوفاء ، لا توحي بما توحي به الكلمة العربية من معنى التحقير . فهذا مثل آخر على ما يؤدى إليه الفصل بين القرآن وبين لغة القرآن ، حتى مع حسن القصد وسلامة النية وبذل الجهد ، فما بالك إذا أضفنا إلى ذلك سوء النية من مثل هذا الكاتب ومن علموه الإسلام ؟

وأستميح القارىء في أن أضيف إلى الوجوه الأربعة لمنطق القاضي عياض وجها خامسا يضيف إلى الأدلة العقلية التي دمغ بها هذه القصة بالكذب والتلفيق :

فالناظر إلى سيرة النبى الكريم ، يتبين من خلالها شخصية لا تستسلم للهزيمة مهما كانت قوة الخصم : يدل على ذلك ـ على سبيل المثال ـ احتماله هو وأتباعه لاضطهاد الكفار ، وصبرهم على أذاهم فى مكة ، وصموده لإغراءاتهم له بالملك والسيادة "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ..." ، وتمسكه بإيمانه الذى لا يتزعزع فى الطائف حين ردّه أهلها مهانا مكسور الخاطر : "إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى" ، ثم رده على أبى سفيان يوم أحد ، حين وقف مزهوّا بانتصاره ، يهتف لإلهه "هبل" ، فيأمر النبى أصحابه ، وهو الجريح المهزوم الذى فقد خيرة رجاله فى المعركة ، أن يردوا عليه "الله أعلى وأجلّ .. الله مولانا ولا مولى لكم" .

صاحب هذه الشخصية ، لا يُعقل أن يتنازل ، تحت تأثير أى ضغط أو إغراء ، عن المبدأ الأساسي الذى انبنى عليه دينه ،

---

(١) **The Holy Qoran :** طبعة دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ المجلد الثاني سنة ١٩٦٨ ـ صفحة ١٤٤٥ .

وحجر الزاوية الذى قامت عليه دعوته ، وهو مبدأ التوحيد . ولا يتعارض هذا مع مرونة صاحب هذه الشخصية فى المواقف التفصيلية المتعلقة بالكر والفر ، والمهادنة ريثما يعاد تنظيم الصفوف ، أى فيما نعبر عنه فى كلامنا المعاصر بالمسائل "التكتيكية" . أما فى "الاستراتيجية" ، أما فى أصل العقيدة ومحور الدعوة .. فهيهات !

ومع ذلك ، فإن من سجلوا هذه الرواية من علماء المسلمين فى اجيالهم المتعاقبة ، لا يمكن أن نحكم عليهم بالكفر : سواء من فندها وكشف عوارها مثل القاضى عياض ، ومن بعده الإمام محمد عبده ، أو من نقلوها وضعّفوها مثل ابن كثير ، أو من ذكروها دون تعليق مثل الطبرى ، أو حتى من صدقها ودافع عن صحتها مثل ابن حجر العسقلانى . لا يمكن أن نرمى أحداً منهم بالكفر إذا رواها على صورتها تلك التى وصلت إلينا عبر القرون ، دون زيادة أو تلاعب ، ودون أن يتخذها ذريعة للطعن فى كتاب الله ، أو فى رسوله ، أو فى الأصول التى انبنى عليها دينه .

فلننظر إذن إلى الصورة التى حكاها بها صاحب الكتاب الذى نحن بصدده .

حكاية رشدى لقصة الغرانيق :

تدور أحداث هذه القصة ـ كما يرويها ـ فى مكة المكرمة ، التى اختار لها اسما تنكريا هو "جاهلية" . ويصور فيها النبى وهو يدخل فى حوار مع زعيم المشركين "ابى سفيان" ، يساومه فيها الأخير على أن يخفف من هجومه على الأوثان ، مقابل أن تخفف قريش من اضطهادها له ولاتباعه . فيعده بأن يفكر فى الأمر ، ثم يعرض هذه الصفقة على بعض أصحابه ، فيحذرونه من الوقوع فى هذا الكمين . ولكنه لا يقتنع برايهم ، فيصعد إلى الغار ، وينزل بعد فترة ليقول لهم إن جبريل قد أوحى إليه بآيات جديدة سيقرأها

عليهم . ثم يقرأ تلك العبارات الدخيلة على جمع يضم أتباعه وعبدة الأصنام معا ، فيسجد عبدة الأصنام حين يسمعون مدح آلهتهم .

وبعد فترة من احتجاج أصحابه على ذلك ، يدرك أن أبا سفيان قد خدعه ، فيغيب ثم يأتى مرة أخرى ليقول إن جبريل قد أمره بحذف تلك العبارات ، وإحلال عبارات أخرى محلها ، وهى الآيات المعروفة من سورة النجم .

ثم ينهى المؤلف القصة بخروج النبى من مكة عائدا إلى يثرب ، معبرا عن كراهيته للمدن ، وإيثاره للبادية التى يعتبرها المكان الطبيعى للمؤمنين (!)

ويترك المؤلف قارىء الكتاب بين احتمالات ثلاثة لا يمكن أن يخرج مقصوده عنها :

١ ـ إما أن الملاك تلبس فى صورة شيطان فأملى تلك العبارات على النبى ، ثم عاد إلى صورته الأصلية فحذفها .

٢ ـ أو أن الملاك خالف ما أمره الله به ، وتلاعب بالرسالة التى يحملها ، والتى أُمر بأن يبلغها إلى النبى .

٣ ـ أو أن النبى لم يُوحَ إليه بشىء ، وإنما ضعفت نفسه أمام اضطهاد المشركين فاستسلم ومدح آلهتهم . ثم رجع عن موقفه ذاك ، فذمّ تلك الآلهة .

وغنى عن البيان أن كلا من هذه الاحتمالات تدمغ المؤلف بالكفر الصريح ، وتقطع بارتداده عن الإسلام ـ هذا إذا كان قبل ذلك مسلماً أصلا !

ولنا على هذا الباب بعض الملاحظات التى تشير إلى تصور المؤلف للعقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، والمصادر التى استمد منها هذا التصور . أما كفره ، فهو كما قلنا ، غنى عن البيان ، لا يحتاج إلى دليل ، ولا يستحق التوقف عنده لحظة واحدة .

موقفه من الصحابة :

لا يذكر المؤلف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعة أشخاص ، يسميهم هذه المرة بأسمائهم الحقيقية ، دون اقنعة التنكر الشفافة :

١ ـ **حمزة عم الرسول** : يظهره فى صورة البطل الشجاع الباسل ، الذى لا يساوم على الحق ولا يقبل أى حلول وسط ، والذى يخرج حاملا سيفه ، غاضبا من هذا التنازل المبدئى ، يبحث عن إخوة "هند" ـ زوجة أبى سفيان ـ فى شوارع مكة ليلا ، ويقتل منهم أربعة ، فتقسم هند أن تنتقم منه شر انتقام .

٢ ـ **سلمان الفارسي** : ويظهره أيضا فى صورة الرجل العاقل الأريب ، الذى قام بحفر الخندق لحماية أتباع الدين الجديد فى يثرب ، والذى يعترض بشدة على قبول خطة أبى سفيان ، ولكن رأيه لا يؤخذ به .

٣ ـ **بلال الحبشي** : الذى كان عبداً للمشركين حتى حرره أتباع الدين الجديد (لا يذكر المؤلف ـ طبعا ـ أن الذى أعتقه هو الصديق أبو بكر) . وموقفه مثل "سلمان" ، إلا أنه أضعف منه حجة .

خالد : وقد أظهره فى صورة رجل يحمل الماء إلى الحجيج ، ويعترض اعتراضا ضعيفا على موقف النبى ، لا يصل إلى حد الاحتجاج .

اما بقية أعلام الصحابة ، وزراء النبى ومستشاروه وألصق الناس به ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ وغيرهم ، فلا يذكر عنهم شيئا فى هذا الباب ، وكأنهم غير موجودين أصلا ، وإن كان يشير إلى بعضهم إشارات عابرة فى باب آخر من الرسالة ـ كما سنرى .

وواضح من هذه الصورة ، أن المؤلف يضع ثلاثة بالذات من صحابة النبى (حمزة ، وسلمان ، وبلال) فى مكانة أعلى من مكانة النبى نفسه ، يتمسكون بالحق حين تخاذل ، ويحاولون رده عن موقفه الانهزامى ، ويستبد بهم الغيظ فينزلون غضبهم على المشركين الذين ساوموه وساومهم . تنزّه رسول الحق عن كل ذلك ، وتنزّه صحابته الكرام ، الذين لا يستمدون مكانتهم عند عامة المسلمين من كونهم أفضل من النبى - حاشا لله ، وإنما يستمدونها من مكانة النبى نفسه ، وبما يمتّون إليه به من قرابة أو صحبة أو اتّباع ، يقينهم فرع من يقينه ، وإيمانهم إيمان به وبدينه ، ومنزلتهم تبع لمنزلته وفرع منها .

ومن أجل الوصول بالقارىء إلى هذه النتيجة المعكوسة ، يخلط المؤلف الأوراق خلطا شنيعا ، ويبدّل ويغيّر فى أزمنة الأحداث وأماكنها وأسبابها . فيصور حمزة وهو يقتل أقارب هند فى مكة قبل الهجرة احتجاجا على موقف النبى ، مع أن المعروف هو أنه قتلهم فى غزوة بدر ، بعد الهجرة ، وهو يحارب مع النبى وتحت لوائه . ويصور سلمان الفارسى مقيما فى مكة قبل الهجرة بسنوات ، مع أنه بقى فى يثرب (المدينة المنورة) طيلة سنين البعثة النبوية الأولى ينتظر وصول النبى إلى يثرب ، فلم يره النبى ولم ير النبى إلا بعد هجرته صلى الله عليه وسلم . ثم يصوره وهو يحفر الخندق فى المدينة فى وقعة الأحزاب بعد الهجرة بسنوات ، مع أن أحداث الباب تجرى فى مكة قبل الهجرة بسنوات ... إلخ .

فليس المهم عند المؤلف هو الحقائق التاريخية أو أصول العقيدة ، وإنما المهم عنده هو فى كلمة واحدة : المذهب .

موقفه من بنى أمية : لا يقتصر الكاتب على تصوير أبى سفيان وزوجته هند باعتبارهما رأس الكفر وزعيمى المشركين فى مكة قبل الفتح ، وهى صورة قريبة من الصحة ، وإنما يتجاوز ذلك إلى وصفهما - بل وصمهما - بأبذأ الأوصاف وأحطها فى تصرفاتهما

الشخصية وعلاقاتهما الاجتماعية ، ويجرّدهما من كل مسحة من الأخلاق الكريمة أو الصفات الإنسانية . وهذا الموقف ـ وهو أيضا من ضرورات المذهب ـ مناقض لكل الحقائق والمفاهيم التاريخية المعروفة عن سادة قريش مسلمهم وكافرهم ، والتى بفضلها ـ لا بنقيضها ـ تسوّدوا قريشا قبل الإسلام .

ثم يتجاوز ذلك مرة أخرى فيعمم تلك الأوصاف وغيرها من مثيلاتها ، على أهل مكة من قبيلة قريش ، بل على العرب عامة حاضرهم وباديهم . وكأن الإسلام حين نزل ، نزل على قوم لا علاقة لهم بشىء من مكارم الأخلاق ، حتى ولا بالقيم النبيلة العادية التى يتمتع بها الإنسان العادى . وكأن المؤلف لم يسمع عن مبادىء الكرم والشجاعة والنجدة والشرف والعفة إلخ .. التى اتصف بها العرب فى جاهليتهم ، وحفلت بها أشعارهم ومواقف مشاهيرهم قبل الإسلام ، والتى تمثل التراث الأدبى والتاريخى الذى جعل منهم الأرض الخصبة ، والبيئة الصالحة لنزول هذه الرسالة الشريفة عليهم . وهى التى عناها القرآن الكريم ، حيث يسمّى الله ما يأمرهم به "**المعروف**" ، وما ينهاهم عنه "**المنكر**" . أى ما تعرفه الطبيعة الإنسانية وتألفه وتألف احترامه من قيم وأخلاق ، نقيضا لما تأباه تلك الطبيعة وينكره ذلك الإلف . كما يصف ما يحله الله لهم من حلال بأنه "**الطيبات**" ، وما يحرمه عليهم بأنه "**الخبائث**" . ولولا أن لديهم القدرة الأصيلة والاعتياد المتواصل على التمييز بين ماهو "طيب" وبين ماهو "خبيث" ، لما كان لمثل هذه الأوصاف معنى عندهم ، ولا صدى فى نفوسهم . ولا كان لمثل حديث رسول الله عن أنه "بعث ليتمّم مكارم الأخلاق" معنى مفهوم . فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يزعم أنه بعث "ليبتدع" مبادىء أخلاقية لم تكن موجودة فى قومه قبله ، وإنما جاء ليكملها ، ويقوّمها ، ويضيف إليها .

مرة أخرى : ليس المهم عند المؤلف هو فهو الحقائق أو ذكرها ؛ وإنما هو المذهب ـ فى وصفه لبنى أمية خاصة ـ ثم الشعوبية

البكماء فى تصويره للعرب عامة .

معلوماته التاريخية :

يعتبر هذا الباب من الرسالة ، سجلّا حافلا بالأخطاء التاريخية واللغوية التى يصعب حصرها ، ولذلك سنقتصر على أمثلة قليلة منها ؛ ولا أعنى بتلك الأخطاء ، عمليات الخلط والتخليط التى ذكرنا طرفا منها ـ بين الأزمان والأماكن والأشخاص ، فهذه يمكن أن نعزوها ـ تجاوزا ـ إلى رغبة المؤلف فى رسم صورة درامية للأحداث بطريقة "سيكولوجيا الأحلام" المزعومة . كما لا أعنى المفاهيم والأحكام الخاطئة التى استمدها من تعصبه المذهبى من ناحية ، ومما تلقنه عن الإسلام من كتابات المستشرقين من ناحية أخرى ، والتى ذكرنا طرفا منها ، وإنما أعنى أخطاء جسيمة جديدة ، يخترعها المؤلف اختراعا ، ويتطوع بها تطوعا ، وهو يضع نفسه فى كرسى أستاذ التاريخ واللغويات ، ويحاضر القارىء ـ فى وقار مصطنع ـ شارحا "الخلفية التاريخية" للأحداث التى يصورها . فمن هذه الأمثلة :

١ ـ تصويره للعرب قبل الإسلام باعتبارهم أمة برّية محض ، لا يعرفون شيئا عن البحر والنقل البحرى ، ولا يستخدمون السفن فى نقل تجارتهم وأنفسهم ، ويعتبرون النقل البحرى منافسا ـ بل عدوّا لهم . وهو قول لم يقل به أحد لا فى الشرق ولا فى الغرب . ويكفى للدلالة على بطلانه عشرات المواضع من القرآن الكريم ، التى جاء فيها وصف السفن والأمواج والأنواء ، ولولا أنها كانت أشياء معروفة لدى العرب فى حياتهم اليومية ما حدثهم عنها . كما يكفى للدلالة على ممارستهم ـ ولا أقول تسيّدهم ـ للنقل البحرى فى البحار الثلاثة المحيطة بجزيرتهم ، قصائد لا تحصى من الشعر الجاهلى ، يذكر فيها شعراؤهم السفن والبحر إلخ .. نورد هنا منها بيتا واحدا مشهورا ، وهو البيت الذى ختم به "عمرو بن كلثوم" معلقته الشهيرة :

مَلأنَا البَرَّ حتىّ ضاق عنّا
وماء البحر نَملؤُه سَفِيناَ

٢ ـ زعمه أن أهل مكة لم يعرفوا شيئا عن الديانة المسيحية قبل الإسلام ، وإنما "سمعوا" من بعيد عن نبى اسمه عيسى ولدته عذراء اسمها مريم . وكأنه يعتذر لقرائه الغربيين عن عدم اعتناق أهل مكة للمسيحية ، واحتياجهم إلى دين جديد يخرجهم من عبادة الأوثان .

واعجب لأستاذ التاريخ هذا ، الذى لم يسمع عن قبائل عربية بأكملها ، كانت تدين بالنصرانية قبل الإسلام بزمان ، ومنها على سبيل المثال قبيلة "تغلب" التى جاء منها مهلهل وأخوه كليب (وائل) ابنا ربيعة ، أصحاب حرب البسوس الشهيرة ، وهما أخوال امرىء القيس أشعر الشعراء الجاهليين ، الذى كان على دينهم أيضا . وهى القبيلة التى ظهر فيها ومنها ـ بعد الإسلام ـ فحل شعراء العصر الأموى ، شاعر الخلفاء "الأخطل" ، الذى بقى على دين آبائه بعد ظهور الإسلام بمائة سنة .

واعجب لذلك الأستاذ الذى لم يسمع عن ورقة بن نوفل ـ خال السيدة خديجة ـ الذى كان على دين المسيح يوم بعث النبى ، والذى لا يعرف أن سلمان الفارسى نفسه ـ الذى يتمسح فيه المؤلف ـ كانت ديانته المسيحية يوم هاجر النبى إلى المدينة ، وقصة حياته قبل الإسلام (أى : سلمان) ملحمة رائعة من ملاحم البحث عن الحقيقة والعقيدة الصحيحة .

٣ ـ يلمح المؤلف ـ فى تعالم عظيم ـ إلى أن النبى كان يكره الحضارة وحياة المدن ، ويفضل عليها البداوة ويعتبرها المكان الطبيعى للمؤمنين . وهذا أيضا لم يقل به أحد ! على العكس من ذلك تماما ، كانت من أكبر مشاكل المجتمع الإسلامى فى المدينة ، مشكلة الأعراب ، البدو ، الذين كان من الصعب ترويضهم وتعويدهم على الدين الجديد والتزاماته من زكاة وجهاد إلخ ... ، كما جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم . على عكس أهل "القرى" الذين

كان من السهل تنظيمهم وتوعيتهم وتحويلهم إلى مجتمع متكامل الوظائف . وكانت أول مشكلة واجهها المسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى انقضاض أهل الردّة من البدو أساسا ، مما احتاج إلى جهود كثيرة وحروب دامية من أجل إعادتهم إلى الصف .

وبعد ذلك ، في الفتوح الإسلامية ، كان الطابع الدائم للمسلمين هو التوطين والتّمْدين ـ بمعنى الكلمة الحرفى المستمد من "المدينة" ، حيثما حلوا يقيمون المدن والحواضر : الكوفة ثم بغداد فى العراق ، الفسطاط التى تطورت إلى القاهرة فى مصر .. إلى عشرات المدن الأخرى التى أقاموها فى شتى البلاد من المحيط إلى المحيط .

فالقول بأن النبى أو الإسلام كان معاديا للحضارة ، مشايعا للبداوة ، قول فيه كثير من التجنّى ، على أخف الأوصاف .

٤ ـ تحليله اللغوى لكلمة "اللات" اسم الوثن الجاهلى المعروف ، وتأكيده القاطع بأنها تأنيث للفظ الجلالة ، واستنتاجه المبنى على هذا المفهوم العبقرى ، بأن الصنم المذكور هو المقابل الأنثوى لذات الله ـ سبحانه وتعالى عن ذلك !

ولن نناقش هنا مسألة اللام الأصلية فى المصدر الثلاثى ، والفرق بينها وبين لام التعريف ، ولا الفرق بين التاء الأصلية وتاء التأنيث . وإنما نتعجب فقط من ذلك المؤلف المؤرخ اللغوى ، الذى لم يطّلع على تاريخ هيرودوت فى مكتبة جامعة كامبريدج ، ولم يقرأ فيه اسم ذلك الصنم ، الذى ذكره هيرودوت باسم "أليتا" ALITTA ، أثناء تعداده لأسماء آلهة العرب قبل اثنى عشر قرنا من عصر النبى عليه السلام[1] .

ولكن صاحب الغرض ـ كما يقولون ـ أعمى !

(١) The History Of Hirodotus ـ طبعة دائرة المعارف البريطانية ـ ١٩٨٦ ـ ص ٣١ .

ـ الرؤيا التناسخية الثالثة : عودة الى جاهلية

نتخطى ـ مؤقتا ـ الباب الثانى من الرسالة ، وننتقل مباشرة إلى الباب الثالث ، لأنه لاحق فى موضوعه ومسرح احداثه بالباب الأول . وإن كان المؤلف قد فصلهما ، على طريقته فى «تعشيق التروس» ، بفصلين من الرواية بينهما فصل من الرسالة ، إمعانا فى التمويه على القارىء ، وإيهامه بأن الكتاب بأكمله عمل «أدبى» متكامل .

الموضوع الرئيسى لهذا الباب ، هو تعدد الزوجات فى الإسلام عامة ، وتعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهو أحد الأنغام المفضلة ، بل هو النغمة الأولى التى يطرب لها أهل الغرب ، ولا يملّون من تكرارها عند الهجوم على الإسلام ونبى الإسلام . مع تنويعات أخرى يضيفها المؤلف من عنده أو من عند أساتذته ، نذكرها فى حينها إن شاء الله .

تدور قصة هذا الباب ـ أو الرؤيا التناسخية ـ فى مكة المكرمة أيضا ، بعد الفتح . ويسميها المؤلف بنفس الاسم الذى أطلقه عليها فى الباب الأول «**جاهلية**» ، وكأنه اسم علم عليها ، لصيق بها ، لا حالة كانت عليها هى والعالم كله قبل

الإسلام ، ثم خلعتها وأصبحت « **إسلامية** » بعد الفتح ، بل أصبحت مركز العالم الإسلامى الدينى وقبلته الوحيدة .

وبطل القصة شاعر اخترعه المؤلف ، واخترع له اسما عجيبا هو «بعل» (يحسبه المؤلف العلاّمة اسما عربيا لشاعر عربى ، وهو : كما هو معروف ـ اسم كنعانى لصنم من أصنام العصور السابقة على الإسلام وعلى المسيحية) . وكان المؤلف قد قدّم الينا هذا الشاعر فى الرؤيا التناسخية السابقة باعتباره شاعرا هجّاء كان أبو سفيان يستعين به على هجاء النبى والمسلمين .

ويصور لنا المؤلف فتح مكة ، وكيف أن النبى أعلن أن من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، ثم أردف أن من دخل بيته فهو آمن ، «ونسى» المؤلف أهم وأول جزء من عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم فى تأمين أهل مكة «**من دخل المسجد الحرام فهو آمن**» ـ ما علينا .

لما فتح الله على المسلمين مكة ، خاف هذا الشاعر أن يقتله المسلمون عقابا له على أشعاره الهجائية ، فلجأ إلى عصابة من القوادين والعاهرات ، استمرت تمارس نشاطها العلنى مدة ثلاث سنين من بعد الفتح (كذا) ، وتقوم سرّا بالتشهير بأزواج النبى أمهات المؤمنين . فاتفقت مع ذلك الشاعر على أن تؤويه وتخفيه عن أعين الناس ، مقابل أن يساعدهم فى عملهم ، وأن يزودهم بأشعار يهجو فيها المسلمين ويشهر بأمهاتهم . ويركز المؤلف بصورة خاصة ، على السيدتين عائشة وحفصة ، ابنتى الصديق أبى بكر والفاروق عمر ـ رضى الله تعالى عنهم أجمعين . ولا يفوته بالطبع أن يورد حديث الإفك الذى أشاعه المنافقون واليهود

في المدينة المنورة ، عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، والذى أشار إليه القرآن الكريم ، ونقضه نقضا قاطعا فى آيات من سورة النور .

ويتنبه النبى ـ بعد ثلاث سنين (!) إلى ضرورة إغلاق بيوت الدعارة ، فيأمر بالقبض على البغايا وإعدامهن ، ومن معهن من القوادين ، فيقبض على ذلك الشاعر من بينهم . فيحاول الدفاع عن نفسه بأنه كاتب شاعر فنان وليس قوّادا (كذا) . ولكن النبى يأمر بقتله رغم ذلك : لأنه لا فرق عنده بين «**البغيّ**» وبين «**الكاتب**» !

وكأن المؤلف يتمثل نفسه فى مرآة ذلك الشاعر ، ويصور نفسه مقدّما ، في صورة شهيد الفن والأدب ، وضحية الدفاع عن الكلمة الحرة ، مثله فى ذلك مثل شاعره ـ ذى الصناعتين ـ «**بعل**» .

وينهى المؤلف القصة بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد أن جاءه ملك الموت عزرائيل فى صورة اللات (كذا) . ولاينسى أن ينسب إلى السيدة عائشة أنها فرحت لوفاة النبى ، محتجة بأن المفروض أن يفرح المؤمنون لصعود روح النبى صلى الله عليه وسلم إلى الملكوت ، مرددة كلمة أبيها الصدّيق رضى الله عنه : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » .

تعليق على هامش الباب :

نلاحظ أن المؤلف ـ رغم أنه ذكر زوجات الرسول واحدة واحدة بأسمائهن ، لم يذكر من الصحابة سوى من سبق له ذكرهم في الرؤيا التناسخية السابقة ، ما عدا اثنين فقط ، هما

«عمر» الذى اختار اسمه ليطلقه على الضابط المكلف بالقبض على البغايا والقوادين ، و « أبا بكر » الذى لم يذكر اسمه صراحة ، وإنما ذكر كلمته المشهورة تلك ، على لسان ابنته السيدة عائشة .

اسمان بالتحديد لم يرد لهما ذكر فى الكتاب كله لا بخير ولابشرّ ، لا فى كلامه عن عصر النبى ولا فى أسماء الأشخاص المعاصرين ، ولاحتى بالصدفة . لا ضمن أشخاص الرواية ، ولا ضمن شخصيات الفصلين المتبقيين من الرسالة . هذان الاسمان هما «على» ، «فاطمة» . رغم أنهما عَلَم على شخصين شديدى الالتصاق بالنبى ، لايمكن لأحد أن يذكر شيئا عن حياته دون أن يذكرهما ، ورغم أنهما اسمان شائعان ، بل لعلهما أكثر الأسماء شيوعا ، من أسماء المسلمين المعاصرين .

نورد هذه الملحوظة ، لا باعتبارها تقصيرا من المؤلف ، فإن عدم ذكره لهما فضيلةً تحسب له ، أو رذيلة لم يرتكبها ، وإنما لنضمها إلى ما أشرنا إليه من «مذهبية» المؤلف ، وأهمية دلالتها عند مناقشتنا لعقيدته .

نأتى إلى القضايا الرئيسية التى يثيرها فى هذا الفصل واحدة واحدة ، ضاربين صفحا عن كثير من الجهالات أسخف من أن نشغل بها القارىء الكريم .

قضية تعدد الزوجات :

كما أسلفنا ـ لا يثيرّ الكاتب هذه القضية اقتناعا بخطأ تعدد الزوجات ، وإنما تملّقا للقارىء الغربى ، وهو المشترى الأول لكتابه ، لأنها الأغنية المفضلة عند كل من يتحدث عن الإسلام منهم . يصفون موقف الإسلام منها بأنه عمل

لا أخلاقى ، ودليل على الفوضى والهمجية فى العلاقات الإنسانية إلى آخر تلك الصفات . والحقيقة أن موقف الفكر الغربى من هذا الموضوع ، موقف مشوب بالنفاق والتطهر الكاذب . ولسنا هنا بصدد بيان حكمة هذا التشريع الإسلامى والقيود التى قيده بها الإسلام من العدل والضرورة وعدم الإضرار إلخ ... ، وإنما نشير فقط إلى أن تعدد الزوجات هو ـ من الناحية العملية ـ صمام أمان لابديل عنه إلا الزنا ، الذى يغضّ الغربيون النظر عنه ، متسترين بكلمة المسيح عليه السلام : « من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر » وإلى المغالطة المشهورة التى يصور بها مفكرو الغرب الإسلام بأنه الدين الذى «أباح» تعدد الزوجات ، بينما الحقيقة أنه الدين الذى «حدّد» عدد الزوجات بأربع ـ كحد أقصى ـ وكان قبل الإسلام بلا حدود ـ فى جميع الأديان .

قضية تدوين القرآن الكريم

هذه أيضا من الأغانى التى يحبها كتاب الغرب و «باحثوه» يلذ لهم أن يدوروا حول القرآن ليحاولوا إيجاد ثغرة فى كيفية كتابته وكيفية جمعه ، فالمعروف أن القرآن الكريم هو أوثق الكتب إسنادا على الإطلاق ، لا أقصد كتب العقائد فقط ، بل الكتب إطلاقا : حصنه الله بما كتبه كتّاب الوحى ، وبالمئات من الصحابة الحفاظ فى أمة من الحفاظ حضارتها كلها لغوية محض . ثم بدأ جمعه من عصر أبى بكر ـ لا من عهد عثمان حسب الفكرة الشائعة ، وتم جمعه وتوثيقه وتوحيد نسخه توحيدا متطابقا تمام التطابق فى عهد عثمان ، قبل أن تمر

سنوات قلائل على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم [١] ، ثم حفظه الملايين تلو الملايين طوال ١٤٠٠ عام فى شتى بقاع الأرض ، يقرأونه ويكتبونه تعلما وصلاة وعبادة ، وتفسيرا وفهما ، وتشريعا واحتجاجا وتبركا إلخ .. مما لايسمح بأى خلل فى كلمة منه أو حرف . ولذلك فإن من يناطح فى مسألة «مصداقية» أو «توثيقية» القرآن ، هو كما يقول البيت المعروف :

كناطحٍ صَخْرةً يوَمْاً لِيُوهِنَها
فَلَمْ يُضِرْها ، وَأَوْهَى قَرْنَه .. الوَعِلُ

وكذلك مؤلف هذا الكتاب الشيطانى ، يناطح صخرة القرآن لأسباب مذهبية ونفاقية ، فلا يوهى إلا قرنه ـ بل قرنيه كليهما .

يحكى من بين ما يحكى فى هذا الباب ، قصة يختلقها اختلاقا ويضعها على لسان سلمان الفارسى رضى الله عنه ، بأنه كان يزور الآيات التى يمليها عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولايتنبه الرسول لهذا التزوير ، ويمرّ عليه دون أن يدرك أن ما كتبه سلمان غير ما أملاه عليه النبى . وهذه الحكاية فى الحقيقة أعجوبة فى الكذب المركب . أولا لأن سلمان لم يكن من كتاب الوحى ولا من جمعة القرآن ، ثانيا أن هذه القصة لم ترد فى التاريخ الإسلامى كله . ولم يرد لها أى شبيه ، إلا شبيه واحد ، هو ما حكاه المرتد عن الإسلام عبد الله ابن أبى سرح ، «الذى كان يكتب لرسول الله صلى الله

---

(١) انصح القارىء المهتم بمعرفة قصة جمع القران ، بقراءة مقدمة تفسير الطبرى ، الموجودة فى الجزء الاول من هذا التفسير او ان يقرا الفصول الأولى من إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى .

عليه وسلم ، ثم ارتد مشركا ، وصار إلى قريش ، فقال لهم إنى كنت أصرّف محمدا حيث أريد ، كان يملي عليّ : عزيز حكيم ، فأقول : أعليم حكيم ؟ فيقول : نعم .. كل صواب» [1] . وقد أسلم هذا الصحابى مرة أخرى بعد ذلك ، وسحب ـ بالطبع ـ كذبته تلك وندم عليها وتاب عنها ، وحسن إسلامه حتى جاهد بقية حياته فى سبيل الله .

هذه هى المرة الوحيدة التى ادعى فيها مدعٍ هذا الادعاء . ادعاه مرتد بعد أن لحق بالمشركين ، فأجاروه من المسلمين ، فأراد أن يقدم إليهم هدية يشترى بها رضاهم وحمايتهم ، فحكي لهم هذه الحكاية الكاذبة . فيجيء سلمان رشدى بعد ١٤٠٠ سنة ليلصق هذه الكذبة ـ بكذبة أخرى ـ باسم الصحابى العظيم سلمان الفارسى ، الذى لم يشفع له عنده أن أباه سماه على اسمه تبرّكا به أو تمسحا فيه !

قضية كثرة تكاليف الإسلام وأوامره ونواهيه :

ينعى الكاتب على الإسلام ، كثرة التكاليف التى يأمر بها أتباعه ، من الصلوات الخمس اليومية ، إلى تحريم أنواع من الطعام والشراب عليهم [2] ، إلى «تدخله» حتى فى نظم المواريث ، حيث يحدد نصيب كل وارث على أساس نوع قرابته إلى المورث . فكأنه يحدد لهم كل ما يأتون وما يدعون فى حياتهم وبعد مماتهم .

---

(١) من كتاب الشفاء ـ للقاضى عياض ـ مصدر سابق ص ١٢٥

(٢) من بين ما يذكره المؤلف من المحرمات : اكل الجمبرى (الإربيان) ، والشيعة يحرمون اكله وكثير غيره مما يحلله اهل السنة .

وهذه القضية أيضا من القضايا التى يكثر المفكرون الغربيون ترديدها ، باعتبارها تدخلا فى حرية الإنسان الشخصية . ونحن لا نبالى بأفكار هؤلاء المفكرين أو أتباعهم ، ولكن لا بأس من أن نبين للقارىء المسلم حقيقة هذه الدعوى ليكون على بينة من دينه .

الأصل فى هذه القضية أن الإسلام دين بلا كاهن ولا كنسية . الفرد المسلم فيه هو كاهن نفسه . والمشرّع الوحيد فيه هو الله سبحانه وتعالى . على عكس ديانات أخرى كالمسيحية التى تخلو تماما من التشريع الأساسى ، وتترك مهمة التشريع للأجهزة الكهنوتية . فالحلال هو ما تحله الكنيسة ، والحرام هو ما تحرمه . ومن حقها أن تحلّ غدا ما تحرمه اليوم ، مثل تحريم أكل اللحوم يوم الجمعة طوال قرون عديدة ، ثم تحليلها فى أيامنا هذه ، وإباحة الطلاق بعد تحريمه آلاف السنين ، وتحريم الإجهاض حينا وتحليله حينا الخ ..

أما فى الإسلام ، فكل وظيفة العلماء ، الذين اصطلح على تسميتهم «رجال الدين» ، هو أن يبينوا للناس ، بما تعلموه ودرسوه من كتاب الله وسنة نبيه ، ما حرمه الله لا ما حرموه هم ، وما أحله الله لا ما أحلوه هم . وقد كانت هذه السمة من سمات الإسلام هى التى أتاحت انتشاره فى الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، لا بالفتح وحده كما يشيع الغربيون ، وإنما بالتجارة والسفر العادى والاتصال الفردى . يكفى أن يذهب رجل إلى بلد لم يدخلها الإسلام . يحمل فى يده مصحفا ، أو يحفظ القرآن فى قلبه ، ليكون دستورا حيا فى أى مكان يحل فيه ، دستورا مطابقا لكل الدساتير المطبقة فى كل البلاد الإسلامية الأخرى . ومن يقرأ ابن بطوطة ـ على

سبيل المثال - يرى رجلا يخرج من موطنه الأصلى فى طنجة ، ليجوب العالم الإسلامى من الأندلس الى حدود الصين ، مرورا بأواسط إفريقيا وجزر المالديف والهند والسند وغيرها ، مدة تزيد عن عشرين سنة ، فلا يحتاج إلى إن يسأل عن القانون المطبق ، أو النظام الأساسى ، فى أى بلد من تلك البلاد التى دخلها الإسلام . يمر فى بلاد ذات نظم سياسية مختلفة ، وعلاقات اقتصادية متباينة ، وعادات وتقاليد وأعراف غريبة عن بعضها البعض . ولكن العنصر المشترك فيها جميعا ، هو القانون المدنى الأساسى ، وقانون العقوبات الأساسى ، والعبادات الأساسية ، والفواصل بين الحلال والحرام ، أى : الإسلام .

ولذلك فإن انتقاد الأوروبيين لتكاليف الإسلام وتفاصيل الأحكام التى يتضمنها القرآن الكريم هو من قبيل المثل المصرى المعروف عن الذى لم يجد فى الورد عيبا ، فعيّره بأنه أحمر الخدين ، يردده تلميذهم النجيب وغرابهم الأبيض فى كتابه ، دون فهم .

قضية العقاب الإلهى :

يردد الكاتب - من الصفحات الأولى من الرواية ، وخلال أبواب الرسالة ، فكرة أن صورة الأله عند المسلمين ، هى صورة الكائن المسيطر القاسى الذى لايرحم ولايغفر ، ويعاقب عباده بأقسى العقوبات على أقل الهفوات . ويقرن - كما أوضحنا فى حينه - بين صورة الاله هذه ، وبين شخصية الأب الشرير القاسى التى تملأ روايته من أولها الى آخرها .

ولن ندخل فى مقارنات بين فكرة الألوهية عند المسلمين ، وعند أهل الكتاب بشقّيهم . ولكن نكتفى بالإشارة فقط الى أن

الله سبحانه وتعالى ، كما يعرفه ويؤمن به المسلمون ليس «إله قبيلة» متعصبا لقوم من خلقه دون غيرهم ، كما أنه ليس الها «شبيها بالبشر» تجوز مقارنة أفعاله بأفعالهم وقياس تصرفاته على تصرفاتهم . وإنما هو قبل كل شىء : «الخالق» . وليس «للمخلوق» أن يحكم بعقله أو برأيه على أعمال خالقه .

أما حكاية القسوة والسيطرة والتجبر هذه ، فيكفى لتكذيبها ـ على سبيل المثال ، أن نجد من بين ٩٩ اسما هى أسماء الله الحسنى ، نجد ٤٦ اسما منها تدل على الرحمة ، و ١٤ اسما تدل على الجبروت والحساب . وبالطبع ليست المسألة مسألة حسابية ، ولكن المفهوم الإسلامى المعروف هو أن الله سبحانه تسبق رحمته عدله ، واسع المغفرة عظيم العفو ، يجازى على الخطأ بأقل الجزاء ، ويثيب على الصواب بأعظم المثوبة ، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة حافلان بالدلائل على بيان هذه الصورة . وهى عقيدة راسخة فى صدر كل مسلم ، لايشعر بما يزعمه أولئك المفكرون ، وهو يقول «يارب» كلما حزبه أمر ، ويقول «الحمد لله» كلما ذكر نعمة من نعم الله التى لاتحصى .

فهى إشاعة رخيصة إذن .. ليس لها صدى عند أى مسلم عرف الإسلام بأى درجة من المعرفة ، يقولونها ليقنعوا أنفسهم لاغير . ويصدقها ذلك الأستاذ ، ويحاضر القراء فيها .

قضية كراهية الإسلام للعلم :

هذه أيضا من أعجب المغالطات فى الفكر الغربى ، وهى تدخل تحت باب «الإسقاط» فى علم النفس ، حين يرميك ذو العيب بما فيه من عيب أنت منه براء ، أو كما يقول المثل

العربى «رمتنى بدائها وانسلت» . فالحقيقة أن عصر اضطهاد العلم هو عصر غلبة الديانة المسيحية على أوروبا ، وكان هذا الاضطهاد مقصورا على البلاد التى تسيطر عليها المسيحية ، دون البلاد التى يسيطر عليها الإسلام ، واستمر مدة تزيد عن ١٢ قرنا ، من القرن الثالث الميلادى الى السادس عشر ، كان المسلمون خلال القسم الأكبر منها ، هم حملة العلم والمعرفة والحضارة ، حتى تمكن العلماء فى أوروبا من فرض احترام العلم ضد إرادة الكنيسة فى عصر النهضة وما بعده .

ولكن المنطق الذى يستخدمه الغربيون فى هذه القضية منطق مضحك : يبدأ بأن المسيحية قد اضطهدت العلم ، إذن فالدين نقيض العلم وعدوه ، إذن فالإسلام نقيض العلم وعدوه . ولا حاجة بنا إلى التدليل على مدى حث الإسلام أتباعه على العلم والتعلم واقتحام مجاهل المعرفة بالتجربة تارة وبالتأمل والبحث تارة . فهذه بديهية معروفة لا تحتاج إلى دليل . حتى الآية الكريمة من سورة الرحمن «**يَامَعْشَرَ الجِنِّ والإِنسِ إِنِ اسْتطعتُمْ أن تَنْفُذوا مِن أقطار السَّمواتِ والأرضِ فانْفُذوا لا تنفذُونَ إلّا بسلطان** » ، والتى اعتبرها القدماء ـ ولهم العذر ـ تعجيزا من الله سبحانه للإنسان أن يخرج من حدود الأرض إلى ما وراءها ، هذه الآية نفسها نقرأها الآن فنرى فيها حثا للإنسان على أن يحاول ذلك ما استطاع ، مع تذكيره بأنه لن يستطيع النفاذ إلا اذا منحه الله سبحانه سلطانا من العلم أو القدرة أو غيرهما .

فالمؤلف ينسى ـ أو يجهل ـ كل ذلك ، فيقول إن الإسلام يحرّم العلم ويعتبر الصعود إلى القمر حراما وخطيئة . من قال هذا ؟ إلا هذا الغراب المتلوّن بصورة حمامة ، يغنى بصوته المزعج ، غناء يحسبه هديلا مطربا ، حسب الحكاية القديمة ، ليعجب به سادته الجدد ويطربهم .

■ الرؤيا التناسخية الثانية :
الامام ■

خصص المؤلف لهذه الرؤيا حوالى ثلث الباب الثانى من الرسالة ، بضع عشرة صفحة فقط ، هى أشد صفحات الكتاب وقارا وجدا وصرامة ، تكاد تخلو من الابتذال الذى هو الطابع العام للكتاب . وكيف لا ، وهو يتحدث فيها عن **آية الله ـ روح الله الخمينى** شخصيا ، الذى اختار له اسما تنكريا هو «**الإمام**» .

يصور الكاتب الخمينى فى منفاه فى لندن (بدل باريس) ، تلك المدينة التى تعرف منظمة السافاك (المخابرات الإيرانية) كل ما يجرى فيها ، وتمارس فيها نفوذا لايقاوم على الأشخاص والأحداث . يعيش فى عزلة تامة ، لايتصل بالعالم إلا من خلال نفر قليل من أتباعه ، منهم ابنه «خالد» الذى يحمل إليه الماء ، وشخصان آخران يسميهما «سلمان» ، «وبلال» . الأول إيرانى . والثانى مغن سابق زنجى أمريكى اعتنق الإسلام ، وجماعة أخرى بلا أسماء من الحرس الحديدى الذين يحرسون الإمام حيثما ذهب ، والذين يرسلهم للجلوس فى ملهى ليلى ليأتوه بالأنباء والإشاعات .

يقيم الإمام فى ثلاثة أدوار من عمارة ، لاتحمل جدرانها أى

صور ، لأن التصوير حرام . ولكنه يحتفظ بصورتين فقط ، إحداهما لقريته فى وطنه البعيد ، ويسميها المؤلف «دش» (قم) ، والثانية لامرأة ذات ملامح قاسية ، عدوته اللدود ، إمبراطورة اسمها ـ طبعا ـ عائشة ، تحمل فى يديها جمجمة بشرية مملوءة بالدم الذى تشربه كالخمر . بعكس الإمام الذى لايشرب إلا الماء القراح ، وتحمل هى الأخرى صورة الإمام ، داخل أيقونة تعلقها حول رقبتها . وكل منهما يتربص بالآخر تربص الموت .

ويعبر الإمام عن سخطه على أغاخان الراحل ، الذى كان يعلن أن الخمر التى يشربها تتحول إلى ماء طهور ، بمجرد ان تلامس شفتيه ، منذرا بأن أمثال هذا الشخص سوف يلقون جزاءهم فى المستقبل . ويحلم الإمام باليوم الذى يصبح فيه متحكما ، لا فى حركة التاريخ فحسب ، بل فى حركة الزمن نفسه . وتذيع اذاعة الإمام الخاصة من لندن ، بصوت بلال «المؤذن» ، بيانات ثورية تعلن فيها عن حركته الثورية ـ لا ضد الإمبراطورة عائشة فقط ، ولا لهدم دولتها الشريرة فحسب ، وإنما لتوقف التاريخ والزمن . وتبشر باليوم الذى تنتصر فيه الثورة ، فيرى المؤمنون الجنة رأى العين . وتنادى الإذاعة بسقوط عائشة ، وأمريكا ، والزمن .

ثم تأتى ساعة الصفر المحددة لقيام الثورة . ويلتقى الإمام بالملاك جبريل ، الذى يحاول إقناعه بأنه ليس فى حاجة إلى ملاك ، «فقد اكتمل الوحى» ، ولكنه يصر على أن يمتطى ظهره ، ويأمره بأن يحمله إلى أرض الميعاد ، إلى «أورشليم» .

وقبل أن يتوهم القارىء أنه يقصد أورشليم الحقيقية ، المدينة ، بيت المقدس ، عاصمة فلسطين التى تحتلها العصابة الصهيونية ، يسارع المؤلف بأن يوضح أنه لا يقصد

بكلمة «أورشليم» مكاناً معينا ، وإنما يعنى الفكرة ، الهدف ، المطمح ، سقوط الداعرة ، سحقها ـ تلك البغىّ البابلية (العراقية).. عائشة .

ويطير الملاك بالإمام إلى قصر الإمبراطورة ، حيث تنضم إليه جموع الثوار الزاحفة نحو القصر فتحصدهم مدافع الحرس ، وتسقط منهم الصفوف تلو الصفوف ، ولكنهم يواصلون الزحف دون تردد أو توقف ، وكل منهم يطلب الشهادة . ثم يصلون عبر جثث إخوانهم ـ إلى أبواب القصر ، ويسكتون المدافع .

وعندها ، تتحطم قبة القصر الذهبية كأنها قشرة بيضة هائلة ، فتخرج من حطامها «اللات» ، ربة الشر ، إلهة الظلام ، ثم تهوى الى الأرض ميتة . ويتم انتصار الإمام ، ليبدأ عصر جديد ، عصر بلا زمن .

ويتضح للقارىء على الفور ، أن المؤلف قد جعل من هذه الرؤيا التناسخية ، قصيدة عصماء فى مدح الخمينى وتمجيده ، وتعليق كل أكاليل الغار وهالات الطهر والقداسة فوق رأسه ، بأن جعله المناضل الذى لايحيد ولايتزحزح عن غايته ـ لا كمثل النبى ! ثم المنتصر الذى لايهزم ـ لا كمثل «حمزة» نفسه الذى انتهى به الحال إلى الموت على يد «هند» ، فى الرؤيا السابقة ، وإن كان لم ينس أن يغمز على الإسلام نفسه ، موحيا بأنه دين رجعى يوقف عجلة الزمن ، حتى على يد الثائر المنتصر .. الخمينى .

وهى فى نفس الوقت قصيدة هجاء ، امتزجت فيها صورة النظام الإمبراطورى الإيرانى ، بصورة ربة الظلام والشر والخطيئة وسفك الدماء ـ «اللات» ، التى اختار لها المؤلف أبغض الاسماء إلى قلبه ، وأشدها التصاقا فى عقله بالشر والخطيئة .. **عائشة** .

ـ الرؤيا التناسخية الرابعة : انشقاق البحر العربى ـ

أفرد المؤلف لهذه الرؤيا ، الثلثين الأخيرين من الباب الثانى من الرسالة ، وجميع الباب الرابع منها . واختار للقسم الأكبر منها اسما موحيا ـ على عادته فى استخدام الأسماء للإيحاء بالمعانى : «انشقاق البحر العربى» ، وهو ما نسميه فى العربية «بحر العرب» ، وكأنه يعبّر بهذه الصيغة الإنجليزية عن أمنية فى نفسه بانقسام العرب أو انشقاق صفهم ، لينفتح الطريق إلى مكة .

واختار لبطلتها نفس الاسم الذى اختاره لربة الشر الإمبراطورى ، عائشة . إلا أنه يصورها فى هذه المرة ، فى صورة فتاة قروية فقيرة يتيمة ، فى إحدى قرى الهند الداخلية البعيدة عن الساحل ، ظهرت عليها فجأة أعراض غريبة : فهى كلما مشت تبعتها الفراشات الملونة بالآلاف ، تظلها من حرارة الشمس ، وتستر جسدها العارى من الثياب ، وتزودها بالطعام ، فتدخل فى فمها المفتوح طواعية بالمئات حتى تشبع .

ثم يصورها وقد ظهرت عليها أعراض الكهانة ، فأعلنت أنها

قد جاءها «الوحى» ، يأمرها أن تخرج هى وأهل قريتها ، فى مسيرة إلى مكة ، سيرا على الأقدام ، حتى ساحل البحر (بحر العرب) ويبشرها بأنهم عندما يصلون إلى الساحل ، سوف ينشق البحر من تلقاء نفسه ، كما انشق أمام موسى (عليه السلام) وقومه ، فيعبرون على الأقدام حتى مكة .

وينضم إليها أهل القرية ، خارجين فى قافلة كبيرة ، حاملين القليل الذى يلزمهم من الزاد والمتاع ، بما فيهم صديق عائشة ، وهو فتى أبله يكسب عيشه من تلعيب ثوره (مثل القرد) لتسلية أهل القرية ، واسمه ـ بالطبع ـ عثمان . ومعهم زوجة رئيس القرية أو عمدتها الثرى ، المصابة بسرطان لاشفاء منه ، والتى أقنعتها عائشة بأن شفاءها لن يكون إلا بخروجها فى المسيرة ، ووصولها إلى مكة .

ويتبع المسيرة ـ فى سيارته المرسيدس ـ عمدة القرية ، الذى اضطر إلى أن يتبعهم على غير إيمان بما يفعلون ، بعد أن فشل فى اقناع زوجته بألا تتبع تلك الكاهنة الشريرة ، وأن تلجأ إلى الطب الذى قد يستطيع إنقاذها .

ويطول الطريق على القافلة ، بين اضطهاد أهالى القرى التى يمرون بها أحيانا ، وبين تأييدهم لهم أحيانا أخرى . وتموت زوجة أحد أعيان القرية ، سيدة فاضلة اسمها «خديجة» ، ثم يموت أيضا عدد من القرويين الذين أرهقهم السير . ويتشكك بعضهم فى جدوى هذه المسيرة ، فينضمون الواحد تلو الآخر إلى العمدة فى سيارته وحولها . ويضعف إيمان بقية القافلة ، فتحذرهم عائشة بأن جبريل قد أخبرها أن البحر لن ينشق إلا إذا كانوا على إيمان تام بما يفعلون .

.. ويجبر العمدة عائشة وزوجته على ركوب السيارة ، ولكن تنقذهما منه معجزة ، إذ يحدث فجأة فيضان هائل يغرق القرية

المعادية التى كانوا يمرون بها ، ويقتل الآلاف من أهلها ، فتضطر السيارة إلى التوقف .

ويحشر المؤلف فى هذا الموضع حادثة ملخصها أن الجماعة وجدوا على باب أحد المساجد طفلا لقيطا ، فحكم إمام المسجد بوجوب رجم الطفل لأنه ابن الخطيئة ، فيرجمون الوليد المسكين حتى الموت .

ويعرض العمدة على عائشة أن يصل معها إلى حل وسط ، بأن تتخلى عن المسيرة ، مقابل أن يحملها هو وزوجته ، وبضعة أفراد تختارهم من أهل القرية ، على حسابه بالطائرة ، إلى مكة ، لكى يتيح لزوجته فرصة العلاج الطبى . فتضعف عائشة تحت ضغط روح التمرد التى تزايدت بين أتباعها . وتطلب مهلة للتفكير . وفى الصباح تعلن له أنها ترفض العرض الذى عرضه عليها ، والذى يتناقض مع مبدئها فى عدم المصالحة ، وفى الطهارة الكاملة .

وتستمر المسيرة حتى البحر ، فتنزل عائشة ومن ورائها القرويون ، ويبقى العمدة وقليل من اهالى القرية يراقبونهم من على الشاطىء . ويشهد الجميع أنهم رأوا البحر العربى ينشق للركب ، ليسيروا فى اتجاه مكة ، وكأنه أرض صلبة . يشهد الجميع بذلك إلا العمدة ـ المؤمن بالعلم ـ الذى ينكر أنه رأى البحر ينشق ، وإنما ينعى زوجته ، باعتبارها ماتت غريقة مع عائشة وبقية أهل القرية .

ويعود العمدة إلى القرية ، حيث تستولى عليه الكآبة ، فتتدهور صحته سريعا ، حتى إذا أشرف على الموت كان آخر ما يراه ، رؤيا تنشق فيها مياه البحر ، ويرى فيها عائشة ومعها زوجته ، وهما تعبران البحر العربى على الأقدام .

ولا تضيف هذه الرؤيا جديدا إلى الرؤى السابقة ـ

باستثناء الجو الهندى الصميم الذى تجرى أحداثها فيه ، وإنما يؤكد المؤلف من خلالها نفس العبرة التى يريد للقارىء أن يستمدها من الرؤى السابقة ، وهى ضرورة التمسك بالمبدأ ، والسير فى الطريق حتى النهاية دون تزحزح ، والذى يعتقد المؤلف ـ أو يروّج ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يتمسك به كما ينبغى .

كما أن فيها تلك القصة التى حشرها المؤلف عن رجم طفل وليد بأمر إمام المسجد ، وغنى عن البيان أن هذا العمل الإجرامى الهمجى لايمكن أن يصدر عن مسلمين ، أو يسمح به الإسلام ، وإنما الموقف الإسلامى المعروف هو معاقبة الزناة أنفسهم ، لا أطفالهم . والقصة المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجل عقاب الزانية حتى تضع حملها ، ثم حتى تتم الرضاع ـ معروفة لا تحتاج إلى إعادة ولكن .. لله فى خلقه شئون .

الباب الثالث

المؤلف من خلال كتابه

بعد أن استعرضنا الكتاب بشقيه الروائى والدعائى ، أو القصة والرأى ، نستطيع أن نتوقف لننظر إلى مؤلفه من خلال كتابه ، لنتعرف على تكوينه الفكرى والعقائدى من خلال تقييمنا لكلامه :

عقيدة المؤلف الدينية :

يبدو التساؤل عن عقيدة المؤلف ، بعد هذا العرض لآرائه وافكاره وأسلوبه ، وكأنه تساؤل لا محل له ، ولاجدوى منه .

فهو أولا : غير مؤمن ، لا بالله ، ولا بملائكته ، ولابكتبه ، ولابرسله ، ولا باليوم الآخر . بل يهزأ ويسخر من كل ذلك في تبجّح فريد : زنديق ، ملحد ، كافر ، مرتد عن الإسلام .. إلخ هذه الأوصاف .

وهو ثانيا : انحلالى .. لايقيم وزنا للأخلاق أو الفضيلة أو الشرف ، بل يعادى كل هذه المعاني عداء صريحا . ويكفى للدلالة على ذلك ، أنه ـ وهو الذى ينعى على الإسلام تحليله لتعدد الزوجات ، وكأنه أمر لايليق وفضيحة لاتغتفر ، لايتورع عن أن ينشيء صورا من الانحلال يندى لها جبين إبليس نفسه ؛ من زوج وعشيق وزوجة حبلى من العشيق يقيمون فى ونام تحت سقف واحد ، إلى زوجة وعشيقة يتعاونان مع الابن على العناية بالأب المشرف على الموت ، إلى أب وعشيقته وزوجها وابن وعشيقته التى تصبح عشيقة الأب فى لحظة ..

إلى آخر هذا العك التعاونى - على رأى الاستاذ نجيب المستكاوى - صور يذكرها دون أن تهتز لها شعرة من جبينه ، ودون أن تستحق منه التعليق عليها بعلامة تعجب واحدة ! وهو الذى أفرد لمسألة تعدد الزوجات بابا كاملا من ٣٥ صفحة من رسالته .

كل هذا صحيح . ويكفى القارىء أن يقرأ بضع صفحات من الكتاب أو يقرأ هذا العرض الموجز الذى قدمناه ، ليتبين بصورة قاطعة ، أن الكاتب ملحد ، وانحلالى . ومع أنه ليس كل ملحد انحلاليا بالضرورة ، بل ربما حرصت بعض الفلسفات والمذاهب الإلحادية على الفصل بين الاعتقاد فى «الغيبيات» وبين الالتزام بمبادىء الأخلاق ، إلا أن هذا المؤلف بالذات يجمع بين الإلحاد والانحلالية ، وكأنهما وجهان لعملة واحدة . والانحلال بشتى صوره ، لايمثل عند المؤلف اقتناعا عقليا فحسب ، بل أسلوب حياة ونمط سلوك ، مما لابد أن القارىء الفطن قد استنتجه كما استنتجناه - من كلامه .

فما سؤالنا إذن عن عقيدته ؟ فليس بعد الكفر ذنب كما يقولون .

ونحن لانتساءل هنا عن ما بعد الكفر ، بل عن عقيدته «قبل» الكفر ، وتحت مظلة الكفر ، أو الغلمانية[1] كما يحب أصحابها

---

(١) أرجو أن انبه القارىء الى أن استخدام كلمة «العلمانية» هنا سيكون قاصرا على المعنى الذى يستخدمها به الملحدون وهى أنها مرادف - مخفف - لكلمة «الإلحاد» . وليس لهذه الكلمة عندنا علاقة «بالعقلانية» التى تعنى إعمال العقل فى كل الأمور - حتى الدينية منها - دون إنكار للمعتقدات الدينية الأساسية . فليس كل عقلانى علمانيا أو ملحدا .

أن يسموها . نتساءل عن المعتقدات المترسبة فى ذهنه ، وفى أعماق ضميره ، تحت القشرة الرقيقة من الاقتناع النظرى ، أو التسليم بالإلحاد . هذا هو ما نبحث عنه .

فمن الظواهر الجديرة بالتأمل فى هذا العصر ، أن كثيرا من الملحدين - بل أغلبهم فى الواقع ، من الذين سلّموا عقولهم ، أو سلمت عقولهم ، بالفكر العلمانى ، وبخاصة الماركسية ، التى جذبتهم بجانبها الاجتماعى وهو «المادية التاريخية» - بما فيها من مبادىء عن العدالة الاجتماعية والمساواة ، إلى التسليم بجانبها الفلسفى المتمثل فى «المادية الجدلية» ، القائمة على إنكار فكرة الألوهية برمتها ، وطرح جميع الأديان جانبا ، باعتبارها إفرازات طبقية فى مراحل معينة من تطور المجتمع - أو باختصار : « أفيون الشعوب » حسب القول المشهور.

أقول .. إن غالبية هؤلاء العلمانيين ، ظلت مترسبة فى أعماقهم كثير من القيم التى تربوا عليها ، واحترام كامن فى نفوسهم للمقدسات التى اعتادوا على توقيرها وعدم المساس بها ، بل والتعصب فى كثير من الأحيان للديانات والملل والمذاهب التى كان عليها آباؤهم ، والتى يشعرون - بصورة ما - بالانتماء إليها ، وبأنهم جزء منها ، مسئولون عنها .

أعرف كثيرا من هؤلاء «العلمانيين» ، يقرأون آية الكرسى - سرّا - كلما حَزَبَهم أمرٌ أو واجهوا خطرا ، ويتلون الشهادتين إذا دهمهم موقف يتعرضون فيه للموت ، ولا يأكلون لحم الخنزير على أى صورة كان إلخ .. ، وكثير منهم يعودون ، بعد فترة ، وبدرجات متفاوتة إلى عقيدتهم التى تربّوا عليها .

وأعرف - وربما يعرف القارىء أيضا - كتابا معاصرين وراحلين ، عقيدتهم المعلنة هى العلمانية ، ولكنهم يتعصبون

أشد التعصب لكل من هو على دينهم الأصلى ، وتفيض كتاباتهم بهذه الروح ، فى تستر مصطنع لايخفى على أحد .

بل لقد عرفت ـ فى مرحلة من مراحل العمر ـ زعيما من كبار زعماء الحركة الشيوعية المصرية ، ماركسيا ملحدا لاينى لسانه عن الاستهزاء بالأديان جميعا ، يهوديا ـ أو من أصل يهودى كما كان يصف نفسه ، كان يمتنع عن أكل اللحم الذى يأكله «رفاقه» من المسلمين والمسيحيين واليهود ، متظاهرا بأنه «نباتى» . ولكنه لايتردد فى أكل لحم الكوشير (وهو اللحم الذى يذبحه كاهن اليهود) عندما تحضره له زوجته ، زاعما أنها تطهوه له بطريقة خاصة تحتملها معدته ، ويحتاجه جسمه الذى يضعفه الامتناع الطويل عن أكل اللحوم .

حتى أعلام الفكر والسياسة من زعماء الماركسية ، ومن ذوى الأصول اليهودية خاصة ، وجهت إليهم اتهامات لاتخلو من الصحة ، بأنهم يتعصبون لديانتهم القديمة وأهلها . وعلى رأسهم «كارل ماركس» نفسه ، ومن بعده «تروتسكى» الزعيم الروسى البلشفى رفيق لينين ، والمرشح لخلافته لولا أن أزاحه «ستالين» .

فالعقيدة الدينية أرسخ فى النفس مما يظنّ معظم الناس ، ومما يزعم العلمانيون . فالانسان يرتضعها منذ الطفولة ، فتصبح جزءا من تكوينه مثل لبن أمه ، يصعب انتزاعها كلية ، مهما بدا من اقتناع صاحبها بما يخالفها من نظريات أو فلسفات .

وقد عبر مؤلف الكتاب نفسه عن ذلك فى قوله فى موضع من كتابه ـ اقتباسا من أحد كتاب الغرب : «**إن المرء لايمكن أن يشفى من طفولته**» . كما عبر عنه فى حديث له إلى إحدى الصحف ، إذ يصف نفسه بأنه « **علمانى يحتفظ لله بمكان فى قلبه** » .

وسوف نصحب القارىء فى رحلة داخل هذا القلب الذى يصفه ، متغلغلين تحت تلك القشرة الهشة من العلمانية والانحلالية ، لنتعرف على حقيقة العقيدة التى ارتضعها مع لبن أمه ، والتى لايمكن أن يشفى منها أبدا .

أول ما يلفت نظرنا فى كلام المؤلف ، هو ما لم يقله ، ما يتجنب المساس به ، ما يعتبره قدس الأقداس الذى لا يمس من قريب أو بعيد ، ولا يشار إليه ولو إشارة عابرة ، خيفة الوقوع فى المحذور الذى لايغتفره ضميره ـ أو ما تبقى من ضميره .

هذا الحرم المقدّس ، هذا المحذور المخوف ، يتمثل فى شخصين واسفين اثنين ، لم يشر إليهما ـ كما ذكرنا آنفا ـ ولو من باب الصدفة او الخطأ ، وهما شخصا أمير المؤمنين **الإمام على بن أبى طالب** كرم الله وجهه ، وزوجته **فاطمة الزهراء** ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسماهما الكريمان العزيزان على قلب كل مسلم مهما كان مذهبه . يتورع المؤلف ـ وهو الذى لايتورع عن شىء ـ ويتقى ، ويحذر ، أن يذكرهما بخير أو بشرّ .

ومن بعدهما السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، لايذكرها إلا بكل احترام وتبجيل هى أهل له ولأكثر منه ، ولايطلق اسمها على شخصية معاصرة من شخصيات روايته أو رسالته ، إلا مشفوعة بالتكريم والإجلال لتلك الشخصية . ويصفها صادقا ـ وهو الكذوب ـ بأنها كانت للنبى الأمّ والزوجة والمعين والرفيق ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم ضاقت به السبل واشتد عليه الكرب بعد أن توفاها الله سبحانه وتعالى إلى رحمته .

ثم سيد الشهداء ، أسد الله ، حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لايذكره أيضا إلا بالتعظيم والتبجيل الذى هو أهل له ، وأضعاف أضعافه فوقه .

والمرتبة التالية لهاتين المرتبتين ، هى مرتبة يضع فيها اثنين لا ثالث لهما من أصحاب الرسول الكريم رضى الله عنهم جميعا ، هما على التحديد : سلمان الفارسى صاحب الخندق ، وبلال بن رباح مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام .

إذن فهناك مقدسات لاتمس . وهناك أشخاص لايذكرون إلا بالتبجيل والتكريم ! وليست الحكاية كلها علمانية فى علمانية !

وهناك على الجانب الآخر : أشخاص يلعنون أشد اللعن ، ويسبون سبا رذيلا بالحق والباطل ، أو الباطل وحده . أولهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وهند بن عتبة ، وزوجها أبو سفيان . يجعلهم رموزا للشر والرذيلة ، لا بأشخاصهم فقط ، بل أيضا بأسمائهم التى يجعلها علما على كل من يريد تحقيره من الأشخاص الذين يملأ بهم روايته ورسالته . فمثلا صاحبة الفندق البدينة الجاهلة ، يسميها «هند» ، والكاهنة المجنونة يسميها «عائشة» ، وصاحب الفندق الإمعة يسميه «سفيان» .. وهكذا . وهو فى سبيل ذلك لايفرّق بين أبى سفيان وزوجته هند قبل أن يسلما ، وبعد أن أسلما . فهو لايعترف بأن الإسلام يجبّ ما قبله .

المرتبة التالية من الأشخاص والأسماء الذين يهزأ بهم عرضا ، أو دون توقف كثير ، هم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وخالد بن الوليد ، وزوجات الرسول بعد خديجة ، وخاصة حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهم جميعا .

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وجبريل روح القدس ، والقرآن الكريم كتاب الله وكلمته ، فهذه الثلاثة يضمها في مجموعة واحدة ، طابعها عنده الإنكار والتشكيك في مصداقيتهم ، والترويج لفكرة تبديل القرآن وتحريفه بصورة خاصة ، ثم السخرية كلما أراد أن يستخف دمه أو يستخف بعقل قارئه .

وأما البيت الحرام ، أول بيت وضع للناس ، وقبلة المسلمين ، فيمطره بالسخرية والكراهية والألقاب الوثنية ، وبالشتائم البذيئة لبانيه ورافع قواعده إبراهيم الخليل ، وابنه الذبيح إسماعيل ، على نبينا وعليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وفى النهاية ، تأتى فكرة التناسخ التى يقيم عليها الهيكل العام للكتاب ، ويجعلها الصلة الوحيدة بين الرواية والرسالة ، والمطيَّة التى ينتقل بها عبر الزمان والمكان والأشخاص ، فيما يسمونه "سيكولوچيا الحلم" ، والتى يبدأ بها أول كلمة من كتابه ، ثم يرددها مرارا بعد ذلك : "من أجل أن نولد من جديد ، لابد أن نموت أولًا" .

هذه هى الخصائص ، أو الملامح ، أو المواصفات ، التى انبنت عليها عقيدته التى ارتضعها مع لبن أمه .

ولاشك أن القارىء قد استنتج أن هذه المواصفات ، أو بعضها ، تضع صاحبها فى عداد الشيعة ، أو على وجه الدقة ـ المنتسبين إلى المذهب الشيعى . وهذا الاستنتاج صحيح مائة فى المائة ، بديهى لايحتاج إلى دليل . ولكن الاقتصار عليه ينطوى على تعميم وتسطيح وإخلال ، لايقل عن تسطيح المؤلف فى وصفه نفسه بالعلمانية . وهو قبل ذلك ظلم فادح للغالبية من أبناء المذهب الشيعى بطوائفه العديدة .

فكلمة «الشيعة» كلمة واسعة جدا ، تستخدم للدلالة على قطاع عريض من المسلمين ، والمنتسبين إلى الإسلام . وهى وإن كانت تنطبق على عدد لايتجاوز ١٠ ٪ من المسلمين ، إلا أن بداخل هذه العشرة بالمائة أقساما وفرقا وطوائف لا تكاد تُعد أو تُحصى ، متباينة فيما بينها أشد التباين ، لايجمعها إلا أن كلا منها يعتبر نفسه «مشايعا» لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ويقول الإمام أبو الفتح الشهرستاني إنه أحصى من قسم واحد من أقسام الشيعة ، ٧٢ فرقة وطائفة مختلفة .

والأساس المشترك الذى تقوم عليه جميع هذه الأقسام والفرق والطوائف ، هو القول بأحقية الإمام على بالإمامة والخلافة ، حين انقسم المسلمون بين مؤيد لعلى ومؤيد لبنى أمية فى الفتنة الكبرى . وهو قول يكاد يجمع عليه المسلمون المعاصرون على مختلف مذاهبهم من سنة وشيعة ، وحتى الدارسون «الموضوعيون» للتاريخ الإسلامى . ويضاف إلى ذلك تعظيمهم ومحبتهم لآل البيت ـ بيت الرسول ـ وبخاصة فاطمة الزهراء . وهذا أيضا عليه إجماع كامل من المسلمين .

ثم بعد ذلك يأتى الخلاف والتفرق والانقسام إلى أقسام وفرق وطوائف .

ولسنا هنا فى معرض بيان معتقدات كل من هذه الأقسام والفرق والطوائف ، ولكننا سنلخص الفروق الأساسية بين الأقسام الرئيسية ، حسب منهج الإمام ابن حزم الأندلسى(١) ، الذى قسمها الي ثلاثة أقسام كبيرة :

١ ـ الزيدية : وهى أقرب الأقسام إلى أهل السنة . يحصرون الإمامة فى نسل فاطمة الزهراء ، ولايسبّون الشيخين أبا بكر وعمر ، ولايكادون يختلفون فى أصل العقيدة عن أهل السنة ، وإن خالفوهم فى بعض الشرائع والفرائض . وأغلب أتباع هذا القسم فى اليمن والشام .

الإمامية : وهم القائلون بإمامة على كرم الله وجهه بعد النبى عليه الصلاة والسلام مباشرة . ولذلك يعتبرون أبا بكر وعمر «مغتصبين» لحق على وحق آل البيت . ويسميهم ابن حزم «متوسطة الغلو» ، ويؤمن أغلب فرقهم بالتناسخ ، وبالزيادة والنقص والتغيير في القرآن الكريم . والفروق فى التشريع والفرائض بينهم وبين أهل السنة كثيرة . كما أنهم يكفرون من ليس على مذهبهم . وغالبيتهم فى إيران . بل هم حكامها الحاليون بعد ثورة إمامهم الخمينى - غفر الله له .

٣ - **الغلاة** : وهم أبعد الأقسام عن أهل السنة ، وأكثرهم فرقا وطوائف ، تتركز فيهم أكثر البدع المخالفة لأصل العقيدة الإسلامية ، من التشبيه ، والبدء والرجعة ، والتناسخ والحلول ، وهى أكثر الأقسام تأثرا بالديانات الهندية القديمة . ومنهم طوائف تتعصب لعلى بن أبى طالب ، فتعتبره ، لا أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر فحسب ، بل أحق بالنبوة نفسها من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الرسالة التى كان من المفروض أن تنزل على علىّ - قد سلمت الى محمد عن طريق الخطأ - فى قول بعضهم ، أو عن طريق خيانة من حملها - في قول آخر . يعنون ملاك الرب جبريل عليه الصلاة والسلام . وتزيد بعض طوائفهم وفرقهم على ذلك ، فينسبون الألوهية ذاتها إلى على بن أبى طالب ، الذى هو عند عامة المسلمين عبد الله وصاحب عبده ورسوله .

ومن الجلى أن هذه الفرق التى ذكرناها من غلاة الشيعة خاصة ، يخرجون بمعتقداتهم تلك على العقيدة الإسلامية القائمة على شهادتين : أولاهما بوحدانية الله بلا تشبيه ولا تناسخ إلخ ... ، والثانية بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، ثم على الإيمان بقدرة الله التى لايجوز عليها السهو ولا الخطأ ، وبالملائكة الكرام الذين وصفهم ربهم بأنهم «لايَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ ويفعلوُن ما يُؤمَرُونَ » ، وبكتاب الله الذى قال عنه سبحانه وتعالى «إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكر وإنا له لَحَافظُون » ، وبأنه «لايَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه ولا مِن خَلْفِه» .

خرجوا من كل هذه العقائد والمبادىء التى انبنى عليها الإسلام ، ولم يبق لهم منه إلا اسمه ، وبعض شعائره ، والتعصب المبالغ فيه لآل البيت ـ رغم انكارهم لرب هذا البيت الذين هم أهله ـ وبقيت لهم أيضا ، صور يعلقونها على الجدران ، لحمزة بن عبد المطلب ، وهم يقاتل إخوة هند بنت عتبة ، ويسمونها : «حمزة نامه» .

ومن عجيب الاتفاق أن ابن حزم الأندلسى [1] ، فى معرض وصفه لعقيدة إحدى تلك الفرق من غلاة الشيعة ، يقول إن طائفة منهم تعتقد أن جبريل تعمد إعطاء الرسالة الموجهة إلى على بن أبى طالب ، إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ويلعنونه لذلك ـ لعنهم الله . وطائفة أخرى تقول إن جبريل غلط ـ بغير قصد ـ نظرا للشبه الكبير بين النبى وبين ابن عمه علىّ (وهو غير صحيح كما أثبت علماء السيرة) ، ثم يضيفون من عندهم أن النبى وعليا كانا متشابهين «شَبَهَ الغراب بالغراب» حسب قولهم . ولذلك يسمون أنفسهم «الفرقة الغرابية» .

فكأنما يأتينا هذا التشبيه السمج ، وهذا الاسم الذى اختاروه لأنفسهم ، عبر القرون ، صدى لموقف صاحبهم « سلمان رشدى » الغرابى فى عصرنا الحديث .

ولايحسبن القارىء أن هذه الجماعة وأمثالها هى شىء فى بطون الكتب ، قد صهره الزمن أو محته أحداث التاريخ ، وإنما هى طائفة قائمة موجودة حتى يومنا هذا ، وإن كانت قليلة العدد ، وبخاصة فى شبه القارة الهندية .

ويشهد كاتب هذه السطور ، أنه التقى بواحد على الأقل من أتباع هذه الطائفة أو ما يشبهها من الطوائف من غلاة الشيعة : مهندس شاب باكستانى الجنسية ، التقيت به وعرفته عن قرب أثناء

---

(١) الفصل فى الملل والاهداء والنحل ـ ابن حزم الاندلسى طبعة دار المعرفه ـ بيروت ـ الجزء الرابع ص ١٧٩ .

عملى فى إحدى البلاد العربية ، يتسمى باسم إسلامى عربى شريف ، ويطلق لحيته ، ويلبس فى احدى قدمية خلخالا من الفضة ، يرمز به إلى القيد الحديدى ، تضامنا مع الإمام الحسين ابن على رضى الله عنهما ، وتذكيرا لنفسه بآلامه . وعلمنا من زملائنا الباكستانيين من أهل السنة أنه ممن يعتقدون فى استحقاق علىّ للرسالة دون النبى صلى الله عليه وسلم . وعجبنا لهذا التناقض ، فاستدرجه صاحب لنا من أبناء تلك الدولة الشقيقة ـ ذكى أريب لبق الحديث ، قال له وهو يحاوره : كيف يشهد بأن محمدا رسول الله ، وفى نفس الوقت يكذب على الله والناس وينسب هذا الأمر الجليل لنفسه وهو ليس له ؟ .. وبعد تمنّع طويل ، أجابه ذلك الشاب بعبارة واحدة نطقها بالعربية وكأنه يحفظها عن ظهر قلب : « صدق محمد ، وكذب الخائن » . ثم سكت بعد ذلك لاينطق بكلمة واحدة فى هذا الموضوع . وفهمنا بالطبع أنه ـ لعنه الله ـ يعنى بالخائن : جبريل ـ روح القدس عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

والذى يعنينا هنا ، هو أن مؤلف ذلك الكتاب الشيطانى ، الذى أراد ـ من بين ما أراد ـ أن يوهم الناس أن هجومه على الإسلام والمسلمين والقرآن والملائكة والأنبياء والبيت الحرام والصحابة والعرب ، هو شىء من باب «وشهد شاهد من أهلها » أن ذلك الكاتب ليس من أهلها ، ولم يكن قط من أهلها . بل هو من أعدائها ـ أعداء هذه الملّة الإسلامية الشريفة ـ لابعلمانيته المكتسبة فحسب ، بل بحكم مولده ونشأته وعقيدته الأصلية التى ارتضعها مع لبن أمه وفى بيت أبيه . فهو غراب أسود ، أقتم الريش ، فاحم السواد ، من تلك الطائفة الغرابية من غلاة الشيعة ، أو من فرقة قريبة منها ، قبل أن يغادر وطنه ، ويقرر أن يتحول إلى غراب أبيض .

عقيدة المؤلف السياسية :

لايقل المؤلف يساريّة ـ في موقفه ومذهبه السياسي ، عن غلوه في عقيدته الدينية الأصلية . و «اليسارية» ، و «الغلو» ، هما في الواقع شيء واحد ، أو هما تعبيران مترادفان لايفرقهما الا الزمن الذى شاع استخدامهما فيه .

فالمؤلف ينتسب بفكره وبتصريحاته للصحف ، إلى ما يسميه : اليسار الإنجليزى . وهو ينتسب ، بحكم تعاطفه واجتذابه لتعاطف القارىء ، إلى «الماركسية التروتسكية» ، مثله مثل صاحبته ، أو صاحبة صاحبه ونظيره وقرينه في الرواية ـ زينات وكيل .

والتروتسكية هى المذهب اليسارى من الماركسية ، أى يسار اليسار ، أو أقصى اليسار فى الفكر السياسى المعاصر عامة . وينسب هذا المذهب إلى ليون تروتسكى ، الزعيم البلشفى اليهودى الأصل ـ كما ذكرنا ، والذى كان يدعو ، بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧ ، إلى أن تمتد الثورة عبر حدود روسيا ، إلى البلاد الأوروبية الأخرى . وأن المهمة الرئيسية للدولة الجديدة وحزبها الشيوعى ، هى أن تقوم بإحداث ثورات مماثلة فى بلدان العالم الأخرى ، وفى نفس الوقت ـ أن تزيل على الفور ، جميع صور الاستغلال الرأسمالى داخل الاتحاد السوفييتى . وهو ما يسمى فى الفكر الماركسى «نظرية الثورة الدائمة» .

وكان الموقف الذى اختاره لينين ـ زعيم الثورة الأول ـ هو ضرورة التركيز على بناء الدولة السوفيتية الجديدة ، وتقويتها ، داخل حدود روسيا ومستعمراتها أو توابعها القديمة ، وأن المهمة الأولى للثوار ، هى المحافظة على سلامة هذه الدولة ، لتكون «قلعة الاشتراكية التى لاتقتحم» ، ثم لتكون بعد ذلك « قاعدة لإسقاط النظام الإمبريالى العالمى» . وسار لينين على هذا النهج ، مهادنا فى كثير من الأحوال الدول الأوروبية الأخرى ، ومتحالفا فى المجال الاقتصادى على الأقل ، مع الولايات المتحدة نفسها ، ومدافعا عن حدود دولته الجديدة فى حروب التدخل ، حتى عندما اضطره هذا الموقف إلى تسليم بعض المناطق من الأراضى الروسية والتابعة ، إلى دول الغرب الرأسمالية ، مقابل السلام وحماية حدود الدولة الجديدة . كما هادن بعض الطبقات التى تصنفها الماركسية باعتبارها رأسمالية مستغلة ، داخل حدود روسيا نفسها ، إيثارا لسلامة الثورة وحزبها ، فيما يسمى « N.E.P » ، أو السياسة الاقتصادية الجديدة .

وعندما مات لينين ، بعد بضعة أعوام من الثورة ، انقسم الرأى فى الحزب البلشفى إلى فريقين كبيرين : أحدهما يؤيد استمرار السياسة اللينينية تحت زعامة ستالين ، والآخر يؤيد سياسة الثورة الدائمة بزعامة الزعيم الآخر ، الأكثر التصاقا بلينين ، والأكثر جماهيرية والأعلى صوتا من ستالين ، وبعد صراع على السلطة لم يدم طويلا ، تمكن ستالين من إقصاء تروتسكى عن الحزب والسلطة والوطن جميعا ، فنفاه إلى المكسيك ، ثم دس عليه من اغتاله بعد ذلك ـ كما يقال .

وبقى من هذه المعركة ـ بعد أن صفّى ستالين أنصار تروتسكى فى الحزب والدولة ـ أثر واحد ، هو اعتناق فريق قليل العدد من الماركسيين خارج الاتحاد السوفييتى ، لفكرة الثورة الدائمة ، وإدانة أى مهادنة أو مصالحة ، مهما كانت وقتية أو ضرورية ، مع أعداء الثورة . وهؤلاء هم من يعرفون بالماركسيين التروتسكيين ،

ومن بينهم ـ سلمان رشدى .

وقد أثبت التاريخ ـ كما هو معروف ـ أن سياسة لينين وستالين كانت هى الأصوب والأجدى ، من وجهة نظر المصلحة القومية والحزبية للاتحاد السوفييتى والثورة الشيوعية . فلو كانت سياسة تروتسكى قد طبقّت ، لكان من المحتم أن تتحد كل دول الغرب الأوروبية الرأسمالية ضد الدولة السوفيتية الجديدة ، دفاعا عن مصالحها هى نفسها من الثورات التى تثيرها أو تهدد بإثارتها فيها ، فتجهز عليها قبل أن تتمكن من تدعيم وجودها . كما كان من المحتم ، لو اكتسب الحزب عداوة جميع طبقات الأمة دفعة واحدة ، ما عدا طبقة «البروليتاريا» أو الشغّيلة ـ قليلة العدد ، أن تتحالف جميع تلك الطبقات لإسقاط النظام الجديد ، دون أن تسمح له بمهلة يلتقط فيها أنفاسه ، أو ينفذ برنامجه على مهل وبالتدريج .

ما يهمنا من هذا السرد ، هو أن نبين أن أشد المواقف تعصبا ، وتهيجا ، وغلوّا ، ويسارية ، هى فى الحقيقة فخّ ومقتل ، يهدد بابتلاع المبدأ أو المصلحة التى يتظاهر بالدفاع عنها والاستماتة فى سبيلها . تماما مثل المواقف البطولية الانتحارية التى يتبناها المؤلف ويبشر بها ، سواء من ناحية العقيدة فى أبواب الرسالة عامّة ، أو فى الجانب السياسى الذى يشيد فيه بالإمام الخمينى ، باعتباره رافع لواء الإسلام فى العصر الحديث ، القاهر المنتصر على إلهة الشر ، الذى لايهادن ولايصالح ، ولايفكر مجرد تفكير فى المهادنة والمصالحة .

يقال إن قيام الثورة الإسلامية فى ايران ، كان رد فعل للمهادنة التى أجرتها مصر ـ كبرى دول الأمة العربية وقوتها الرئيسية ـ مع العدوّ الصهيونى ، على إثر حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ . وفى هذا القول كثير من الصحة . فقد كان من بين الشعارات التى رفعها الثوار الإيرانيون ، قبل الحرب وبعدها ، وقبل الثورة وبعدها ، شعار «تحرير القدس» ، تحريرها من العدو الصهيونى ، ومن العرب :

المتخاذلين الذين سلموها لليهود . وظهرت شعارات مثل أن الطريق إلى القدس يمر ببغداد ، بل يمر بالقاهرة ، كما ظهرت المواقف العنترية فى العالم العربى نفسه ، ترفع شعارات الصمود والتصدى ، ولاءات الخرطوم ، والحرب حتى آخر رجل ... مصرى - إلخ .

وقد أثبت الزمن ، ومازال يثبت ، أن تبنى هذه الشعارات من جانب مصر خاصة ، لم يكن ليؤدى إلا إلى الانتصار النهائى والحاسم والأبدى ، لا للعرب ، ولا للإسلام ، ولا لتحرير القدس ، وإنما للعدو الصهيونى .

وظهرت تحت مظلة هذه الشعارات الرنانة ، مواقف مستترة تؤدى بالضبط إلى عكس ما تبشر به الشعارات : من شراء الأسلحة من إسرائيل ، والتداوى فى مستشفياتها ، والتنسيق الخفىّ فى المواقف معها ، إلى مهاجمة الجناح الشرقى للأمة العربية ، ومحاولة احتلال العراق (أو : بابل - كما يسميها رشدى) ، والتى لولا صمود شعبها الحقيقى ، وسلامة موقفها التاريخى ، لكانت قد انتهت بكارثة ، لا على يد العدو الصهيونى أو الإمبريالية الأمريكية ، بل على يد أعلى المسلمين صوتا ، وأقواهم حناجر ، فى الهتاف بسقوط الإمبريالية والصهيونية ، أو فى كلمة : أكثرهم «غلوّا» ، ويسارية .

ويماثل هذه الصورة ، ويزيدها وضوحا ، الاستعراض السريع الذى أوردناه لتصاعد حرارة الغلو عند فرق الشيعة الواحدة تلو الأخرى ، وهى جميعها ترفع شعار الإسلام : بدأت من التعصب للحق الذى جاء به الإسلام وكُتابه ورسوله ، إلى التشيع إلى الجانب الذى إليه الحق فى الحرب الأهلية بين المسلمين . ثم تجاوزت إلى تقديس رموز ذلك الجانب ، فإلى تكفير كل من عارضها أو لم ينضم إليها انضماما تاما ، ثم إلى إنكار نبوة صاحب

الرسالة ، وإسنادها إلى تلك الرموز ، ثم إلى إنكار رسالته نفسها والتشكيك في مصداقيتها ، ثم أخيرا إلى نقض مبدأ التوحيد ذاته ، وهو الأساس الذى قامت عليه الرسالة ، بتأليه رموز ذلك الجانب الذى إليه الحق .

دورة كاملة تحمل الانسان من النقيض إلى النقيض ، من التوحيد المطلق .. إلى الشرك الصريح ، على مركب من التعصب للرأى ، والمغالاة ، واليسارية .

ولعل فى هذا تفسيرا للتناقض الظاهرى بين موقف سلمان رشدى الغرابى من الحضارة الغربية الحديثة ، وهو الانصهار التام فيها والانتماء الكامل اليها ـ اى ما يمكن أن نسميه «أقصى اليمين» على المستوى الحضارى والثقافى ، وبين أقصى اليسار فى الموقف السياسى الذى يتبناه ويدافع عنه . فالموقفان هما موقف واحد فى الحقيقة ، فى النتيجة العملية التى يؤدى كل منهما إليها فى النهاية . ولعلنا نكون قد تعلمنا من دروس التاريخ ، أن النتيجة العملية التى يؤدى إليها الموقف هى المحك الحقيقى والوحيد لتحديد الجانب الذى يخدمه هذا الموقف ، وليست الشعارات أو اللافتات المرفوعة فوقه . وغنى عن البيان أن الموقفين الحضارى والسياسىّ اللذين يتبناهما «رشدى» ، يؤديان من طريقين منفصلين إلى نتيجة واحدة ، هى الهزيمة الكاملة ، والتسليم الكامل للعدو ، رغم ما يبدو بينهما من تناقض أو تعارض .

وبدون الدخول إلى دهاليز «المنطق الجدلى» ، من صراع الأضداد ، وولادة الشىء من أحشاء نقيضه إلخ .. ، يكفينا أن نتذكر مثلنا العربى القديم البسيط : أن الشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده .

الباب الرابع

■ أصداء ظهور الكتاب ■

سنحاول فى هذا الباب بيان ردود الأفعال التى نتجت عن ظهور هذا الكتاب فى مختلف أنحاء العالم . ولابد لنا فى هذا الصدد من أن نقسم هذه الأصداء إلى تيارات منفصلة متباينة ، فى القطاعات المختلفة من الرأى العام العالمى . لا لأن ما يحدث فى قطاع من هذه القطاعات منفصل عما يحدث فى غيره من القطاعات ، بل على العكس من ذلك ، ففى عالمنا هذا المعاصر ، يتأثر كل بلد بما يحدث فى البلد الآخر ويؤثر فيه ، كما تتلاطم أمواج البحر وتتدافع وتختلط ، وتؤثر كل منها على الأخرى وتتأثر بها .

ولكننا نقصد إلى أن نميز التيارات الأصلية المختلفة ، النابعة من طبيعة هذه القطاعات ، لكى نحدد القوى الأساسية المؤثرة فيها قبل أن تختلط وتتلاطم ، مشيرين - قدر الضرورة - إلى تأثير هذه التيارات على بعضها البعض .

صدى الكتاب عند الغربيين

غنى عن البيان أن الكتاب موجّه أولا وأساسا إلى عقل القارىء الغربى وجيبه . فهو أولا يخاطبه بلغته ، أو بأشيع لغاته وأوسعها انتشارا ، مستخدما الأسلوب المبتذل الذى أصبح لا يستمرئ غيره . وهو ثانيا يصور له «الشرق» فى الصورة التى اعتاد أن يتصور عليها هذا الشرق : أرض الأحلام والأساطير والجن والأبسطة الطائرة والمصابيح السحرية ، وجو ألف ليلة وليلة الذى يشد القارىء الغربى ويثير خياله .

هذا من ناحية الشكل . أما من ناحية المضمون ، فقد كان من الطبيعى أن يرحب به عامة القراء الغربيين وأجهزة النشر والدعاية عندهم ، ويهللوا له باعتباره انتصارا للفكر الصليبى الراسخ فى وجدانهم ، على الفكر الإسلامى الذى اعتادوا أن يكرهوه ويرهبوه ، وأن يشعروا بالنقص والعجز إزاءه .

أولا : لأنه صادر من شخص منتم إلى هذا الفكر الإسلامى ـ أو مفترض فيه ذلك ـ بحكم اسمه ومنشأه والعقيدة المعلنة لقومه الذين ينتسب إليهم ، أى ـ كما أسلفنا ـ من قبيل : « وشهد شاهد من أهلها» .

ثانيا: يردد على مسامعهم جميع الأغانى التى اعتاد مفكروهم أن يرددوها ويطربوا لها كلما جاء ذكر الإسلام . وأهمها وأكثرها ترديدا عندهم كما ذكرنا هى : تعدد الزوجات ، والتشكيك فى

مصداقية القرآن ، وكثرة تكاليف الإسلام وأوامره ونواهيه ، وفكرة الإله القاسى ، ومناقضة الإسلام للعلم .

ثالثا : يُسمعهم أغانى وتقاسيم جديدة لم تخطر لهم على بال ، أو خطرت لهم ولم تظفر بكثير من الشهرة فى عالم «الطرب» ، مثل :

١ ـ **السخرية من العرب** قديمهم وحديثهم ومعاصرهم ، ووصفهم بأحط الأوصاف . والمعروف أن العرب هم العمود الفقرى للإسلام ، والحائل الجغرافى والبشرى واللغوى دون اكتمال سيطرة الغرب على الشرق .

٢ ـ **تصوير البيت الحرام** ـ قبلة البليون مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، بصورة المعبد الوثنى الجاهلى الذى يعبد فيه حجر أسود .

٣ ـ وصف النبى بأنه **«رجل أعمال»** انتهازى ، لا تاجر شريف كما اعتاد المسلمون وغير المسلمين أن يصفوه ، وكذلك وصفه للإسلام بأنه دين «الخضوع» أو الاستسلام .

٤ ـ استخدامه للفظ **«الحجاب»** علما على بيت الدعارة الخيالى الذى افتتحه المؤلف هو وشاعره بعل فى مكة ، تلك الكلمة التى يعتز بها غالبية المسلمين ، ويعتبرونها رمزا لاحتشام نسائهم وتميزهن عن تيارات الانحلال الغربية . وقد ترجم لهم هذه الكلمة ـ بعلمه الغزير الذى رأينا عينات منه ـ إلى كلمة معناها الحرفى «الستار» .

٥ ـ إظهاره لعاصمتهم لندن فى صورة القِبلة الروحية الجديدة التى ينبغى أن يتجه الناس إليها فى هذا العصر . ويسميها لهم **«لندن شريف»** على وزن «مكة شريف» أى : مكة المكرمة .

٦ ـ تسميته للشخصية الشيطانية فى روايته ، بالاسم الذى يكرهه الأوروبيون كراهية الموت : **صلاح الدين** أو «سالادين» ، على اسم البطل المسلم الذى انتزع منهم بيت المقدس للمرة الثانية بعد عمر بن الخطاب .

رابعا : يقدم لهم المؤلف هذه الهدية الثمينة ، عربونا لتنازلهم بقبوله عضوا فى مجتمعهم وجزءا لايتجزأ من ثقافتهم ، فيؤكد فى نفوسهم الشعور بالعظمة والتفوق ، تماما مثلما فعل عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، الذى أوى إلى المشركين واشترى رضاهم بكذبة على الرسول والقرآن ، لايبالى بأن يصف نفسه فيها بالتزوير والغش لكى يزدهيهم ويسترضيهم . أو كقرد القرداتى الذى يهز ذيله ومؤخرته للصبية المتحلقين حوله ، ليستجلب ابتساماتهم الساذجة ، وفتات نقودهم ، وحبات الفول التى يلقونها إليه .

خامسا : يعطيهم الكتاب فرصة لاتعوض للظهور بمظهر المدافع عن حرية الرأى وحق الكاتب فى أن يقول ما يشاء دون رقيب أو حسيب ، لما يتوقعونه من هجوم على الكتاب وكاتبه من قبل المسلمين .

وهذه أيضا كذبة كبيرة : كشفتها الدعوى التى رفعها بعض المسلمين أمام القضاء الإنجليزى ، مطالبين بمنع الكتاب ، لإهانته لمقدسات المسلمين . فقد حكمت المحكمة بأن قانونها لايحمى إلا المقدسات المسيحية ! صحيح أن محكمة ثانية قبلت عرض القضية عليها ـ من حيث الشكل ـ باعتبار الكتاب مهينا لجميع الأديان ، ولكن مايهمنا هنا هو أن القانون البريطانى لايطلق حرية الكاتب ـ كما يدعون ـ فى أن يهين أى مقدسات ، وإنما يطلق حريته فى اهانة كل شىء .. إلا المقدسات المسيحية ! وأما قصة الحرية المطلقة للكاتب يكتب ما يشاء ، فهى كذب فى كذب ونفاق فى نفاق .

توقيت ظهور الكتاب عند الغرب :

جاء ظهور الكتاب فى وقت يحتاج فيه الفكر الغربى احتياجا ماسا الى هجوم شرس على الإسلام ومقدساته . ففى خلال الخمسين سنة الماضية ، تحولت دفة الحركة الفكرية ، من زحف الفكر الغربى ـ متسلحا بحضارته المادية وإبهاره التقنى والعلمى والعسكرى ، على الشرق المتخلف في كل هذه الجوانب . تحولت الدفة إلى زحف للفكر الإسلامى متسلحا بقيمه الأخلاقية وعقيدته التوحيدية وعلاقاته الاجتماعية السوية ، مهاجما نقاط الضعف الرخوة في جسد الحضارة الغربية الحالية ، التى كشفها إغراقهم فى عبادة المال ، وانغماسهم فى اللذائذ الحسية ، وإطلاقهم العنان لأحط الغرائز . وهذه بالضبط هى الصفات التى ظل الفكر الغربى قرونا عديدة يرمى بها الشرق ويصمه بها ، ويتغنى بالتطهر المسيحى فى مقابل التحلل الإسلامى .

ظل الشرق متمسكا بالفضائل الأساسية والقيم النبيلة ، بينما خلع الغرب عذار الحياء بعد أن أدفأته نار البترول المنهوب من الشرق . وتبين أنهم كانوا يتدثرون خوفا من البرد لا حبا فى الفضيلة .

لقد تبادل الشرق والغرب المواقع فى هذا العصر [١] . وأصبح الغرب هو الذى يتعلم من الشرق فى مجالات شتى :

ففى مجال الأحوال الشخصية ـ مثلا ـ اتجه الغرب إلى إباحة الطلاق بعد أن ردد زمانا طويلا حكاية ما يربط فى السماء وما ينقض فى الأرض ، أباحته بعض بلدانهم بشروط ، ومازالت بلدانهم الأخرى تدرس الموقف .

وتعلم الغرب من الإسلام مبدأ مسئولية الأغنياء من الفقراء ، فأنشأوا أنظمة مختلفة للضمان الاجتماعى ، مبنية ـ فى جوهرها ـ

---

(١) انظر كتاب « الاستشراق » للأستاذ إدوارد سعيد .

على مبدأ الزكاة الإسلامى ، بعد أن كانت المِلكية الفردية لديهم مبدأ مقدسا لايسمح لأى قوة بانتهاك حرمته ، أو بإلزام الغنى بأن يجنب جزءا محددا من ماله يخصص لصالح الفقراء . وإنما يقتصر الأمر على مجرد الدعوة الوعظية للأغنياء أن يتصدقوا على الفقراء طواعية ـ وبالقدر الذى تسمح به نفوسهم كما هو مطبق أيضا فى النظام الإسلامى ، بجانب نظام الزكاة لابديلا عنه .

● ● ●

وتعلم الغرب من الإسلام أن الخمر شر كبير ومصدر لأضرار اجتماعية وصحية وعقلية وخلقية لاتحصى ، فحاولت الولايات المتحدة دفع هذا الضرر فى الثلاثينات من هذا القرن ، ولكن افتقادها للتجريم الدينى والأخلاقى ـ بجانب التحريم القانونى ـ أدى إلى فشل هذه المحاولة . ومازالت مسألة الخمور هى الداء الاجتماعى العضال فى كثير من المجتمعات ، مثل الاتحاد السوفييتى الذى تعانى منه جميع جمهورياته ، ماعدا الجمهوريات الإسلامية التى يتمتع أهلها بصحة جسدية ونفسية واجتماعية أفضل ، وحياة أطول ، من نظرائهم فى الجمهوريات الأخرى .

وتوقف زحف التبشير والتنصير بالقوة على الشعوب المسلمة ، منذ سقوط الأندلس وإجبار أهلها المسلمين على التنصر فى ظل محاكم التفتيش الشهيرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ثم حركة «الترويس» التى شنتها قياصرة روسيا على مستعمراتهم التى يدين أهلها بالإسلام .

● ● ●

وأصبح تحول شعب مسلم إلى المسيحية ـ عقيدة أو ممارسة ـ تحت أى درجة من القهر ، احتمالا غير وارد . وأقرب مثال لذلك هو مسلمو بلغاريا الذين تطردهم دولتهم الشيوعية ، عقابا لهم على إصرارهم على الاحتفاظ بأسمائهم وممارساتهم الإسلامية ، ورفضهم التخلى عن دينهم الذى تحاول هذه الدولة ـ العلمانية ! إجبارهم على تركه .

بل لقد انقلب الميزان ، فأصبح كثير ممن كانوا يدينون بالمسيحية ، ينضمون طواعية إلى الإسلام بغير تبشير ولاتفتيش . وظهرت أول آثار ذلك الاتجاه في الولايات المتحدة ، التى أخذ الكثير من مواطنيها ـ وخاصة السود منهم ـ ينضمون إلى الإسلام بشتى الصور ، باعتباره دين «البوتقة» الذى لافرق فيه بين عربى ولا أعجمى إلا بالتقوى ، فضلا عن كونه دين التوحيد والتطهر الحقيقيين .

وتحولت الجاليات الإسلامية فى بلاد أوروبية مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ، وأغلبها من المهاجرين من بلدان إسلامية كانت تابعة لتلك الدول أو متحالفة معها ، تحولت إلى معرض حى للفكر الإسلامى والقيم الإسلامية ، ينضم إليها كل يوم أعضاء جدد من أبناء البلاد الأصليين أنفسهم ، على كافة المستويات : من رجل الشارع العادى الذى سئم الانحلال والتفسخ ، إلى كبار المفكرين أمثال «روجيه جارودى» ، الذى كان واحدا من أكبر زعماء الحزب الشيوعى الفرنسى .

ورغم أن عدد أعضاء هذه الجاليات لايمثل ـ حتى الآن ـ مشكلة كبيرة بالنسبة إلى تلك البلاد ، إلا أن استمرار الظاهرة وتزايدها يشكّل خطرا بطيئا أكيدا على الهيكل العقيدى لتلك البلدان . لدرجة

أن وزير الثقافة الفرنسي ـ فيما حكاه الأستاذ فهمي هويدي على صفحات جريدة الأهرام ـ انتهز فرصة حضوره إلى مصر في مهمة رسمية ، فعقد اجتماعا بينه وبين عدد من المثقفين والمفكرين الإسلاميين ، أبدى فيه قلقا شديدا من إقبال الفرنسيين على القيم والمفاهيم الإسلامية ، التي يرون صورتها في الفرنسيين من أصل إسلامي (الجزائريين في الغالب) وغيرهم ممن انضم إلى الإسلام من الفرنسيين «الأصليين» . وشن فيه هجوما عصبيًا على ما اعتبره عيوبا في التشريع الإسلامي ، وخاصة بالنسبة إلى ما أسماه «نظرة الإسلام الى المرأة» .

والخلاصة أن الفكر الغربي هو الآن في حالة دفاع عن النفس ضد الفكر الإسلامي ، المتمثل أساسا في أشخاص وتصرفات الغالبية العظمى من المسلمين المقيمين في بلاد الغرب ، والذين يشاركون أصدق المشاركة في جميع النشاطات الاقتصادية والعلمية والمهنية على كافة مستوياتها ، مع تمسكهم بدينهم تمسكا يبدو وكأنه يتزايد كلما زادت درجة مشاركتهم الحضارية . ولذلك جاء هذا الكتاب ، بل خُطط لاصداره في هذا الوقت بالذات ، ليكون بمثابة هجوم مضاد ، ودعوة إلى هؤلاء المسلمين أن ينصهروا في قيم وأخلاقيات الحضارة الغربية ، واستخدموا فيه ذلك الكاتب كمخلب قطّ مناسب جدًا ، لأنه هو نفسه نموذج لهذا الانصهار .

واشترك في التهليل والترحيب بالكتاب كل من إنجلترا وأمريكا اللتين صدر الكتاب بلغتهما ، ثم فرنسا وأسبانيا اللتين ترجمتا الكتاب إلى لغتيهما ليوزع في البلاد الناطقة بهاتين اللغتين في أوروبا ، وفي مستعمراتهما وتوابعهما السابقة في أفريقيا والأمريكتين .

ولم تتخلف دولة «البروليتاريا» السوفيتية عن هذا المهرجان ، لدرجة أن الوفد الروسى فى اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا أشار بترشيح مؤلف الكتاب لمجلس رئاسة الاتحاد ، رغم أنه ـ من الناحية الرسمية ـ ليس آسيويا ولا أفريقيا . كما أعلن مسئول حكومى فى الاتحاد السوفييتى أنهم سيقومون بطبع الكتاب فى اللغة الروسية ، إذا تبين لهم وجود طلب كاف على شرائه . وليس فى هذا الموقف ما يثير الدهشة على الإطلاق ، فالاتحاد السوفييتى لديه «مشكلة إسلامية» أكبر مما لدى كل الدول الأوروبية الأخرى ، تتمثل فى سكان جمهورياته الإسلامية ، المتزايدين فى العدد والصحة وطول العمر وسلامة العقل جميعا ، مما يهدد بانقلاب «ديموجرافى» لصالح سكان هذه الجمهوريات . كما أن فى هذا الموقف دليلا جديدا على أن الصليبية ـ مثلها مثل العنصرية البيضاء ـ أعمق جذورا فى الفكر الأوروبى من مسألة الصراع الطبقى والنظم الاجتماعية والاقتصادية .

فالمستفيد الأول إذن من ظهور هذا الكتاب ، هو الصليبية الأوروبية بوجهيها : الثقافى المتمثل فى «التبشير والاستشراق » ، والسياسى المتمثل فى الإمبريالية أو «الاستعمار» [1] . ومن حقنا أن نستنتج أن الدافع الأول وراء ظهور هذا الكتاب هو هذا المستفيد الأول نفسه . وهو فى ذات الوقت ، الذى يدفع ثمن طباعته والدعاية له ، والمشترى الأول لنسخه المطبوعة فى مختلف اللغات .

---

(١) راجع كتاب «اباطيل واسمار» للعلامة محمود محمد شاكر ، لترى ان التبشير والاستشراق والاستعمار ثلاثة اسماء لمسمى واحد .

ـ صدى الكتاب عند اليهود ـ

تقوم الدعاية اليهودية (أو الصهيونية إن شئت) ، فى المجالات الثقافية والحضارية والتاريخية ، على دعامتين رئيسيتين اختيرتا بعناية : إحداهما تخاطب فى الإنسان شعور «الإعجاب» ، والثانية تخاطب فيه شعور «الإشفاق» . الأولى تجعل موضوعها الرئيسى «عبقرية اليهود» والثانية تتحدث عن « آلام اليهود » .

أولا : عن العبقرية اليهودية :

الصورة التى تصور بها الصهيونية شخصية اليهودى عامة ، هى صورة الإنسان ذى المواهب الطبيعية الخارقة للعادة ، الذى يتمتع بإدراك ممتاز ، ويتفوق فى أى مجال يعمل فيه أو يحاوله ، ويبتكر من الأفكار والأساليب ما يعجز الإنسان «العادى» عن ابتكاره .

وتتضافر جهود المؤسسات والهيئات والشخصيات اليهودية والخاضعة للنفوذ الصهيونى ، على إضفاء هذه الصفات على كل يهودى لديه بصيص من الموهبة أو الذكاء أو البراعة . فيحيطونه بكل ما يمكنه من أن يكون نجما ساطعا مشهورا فى مجاله . ولهم فى ذلك ثلاث سبل يتبعونها جميعا وعلى التوالى ، للوصول به إلى هذه المنزلة : أولها تدريبه وتعليمه وفتح جميع السبل أمامه لإتقان صناعته ، وتوفير كل الإمكانات أمامه من أساتذة ومراجع وأدوات ، حتى يصل على الأقل إلى مستوى لابأس به فى مجاله .

والثانية أن يفتحوا له الطريق ، بإزاحة منافسيه من أمامه ، وتفضيله على أقرانه أو من هم أحسن منه . يكفى ـ مثلا ـ أن يتقدم طبيب يهودى متوسط الكفاءة لإحدى الوظائف فى مستشفى أو هيئة طبية ، من بين عشرة مرشحين آخرين يفوقونه علما وخبرة ، حتى يظفر ذلك الطبيب بالوظيفة دونهم . وقس على ذلك فى

مجالات الفن والهندسة والعلم والصحافة إلخ ..

والثالثة أن يحيطوه بدعاية مدوّية ، ويسلطوا عليه أضواء الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى التى يملكون مفاتيحها ويتحكمون فى اتجاهاتها ، حتى يصبح من المشاهير ، ويصدق الناس أنه عبقرى حقا ، وأنه مثل جديد من الأمثلة الدالة على عبقرية اليهود .

وسأذكر هنا مثالين شهيرين لشخصين من اليهود ، على درجة عالية بالفعل من المقدرة فى مجالهما ، ولكن الدعاية اليهودية أعطت لكل منهما حجما يزيد عن حجمه ، ويرفعه إلى مصاف العباقرة أو فوق العباقرة :

١ - **البرت انيشتين** : عالم الرياضيات والفيزياء الذى اكتشف فى أوائل هذا القرن (١٩١٦) ، ما اصطلح على تسميته «النظرية النسبية» . وهى نظرية تحاول تفسير الظواهر الكونية ، وتحديد القوى المؤثرة فى الكون والمحرّكة له .

وكانت نظريات وقوانين الجاذبية هى السائدة حتى ذلك الحين ، منذ أن وضعها «إسحق نيوتن» فى أواخر القرن السابع عشر . فجاءت النظرية النسبية تصحيحا وتحديدا أكثر دقة لقوانين نيوتن . واعتبرت بحق ، إضافة عظيمة إلى العلم .

ولم تكد تمضى عشرون سنة على ظهور النسبية ، حتى نشأ علم جديد اسمه «ميكانيكا الكمّ» ، أظهر جوانب من القصور فى النسبية ، وعيوبا فى تفسيرها للقوى المؤثرة على الكون ، وبخاصة فى الأجسام الداخلية للذرّة .

وأمضى أينشتين الثلاثين عاما الأخيرة من حياته ، يحاول عبثا التوصل إلى نظرية جديدة تتلافى عيوب وقصور النسبية ، وتعطى تفسيرا شاملا للكون ، يمكن تطبيقه على حركة الأجرام السماوية

والجسيمات الذرية على السواء ، مثلما فعلت نظرية نيوتن عن الجاذبية .

عاشت نظريات نيوتن فى الفيزياء ثلاثة قرون ، ومازالت إضافاته للرياضيات (التفاضل والتكامل) أدوات لاغنى عنها للعلم حتى الآن ، ومازالت نظرياته هى الأساس العلمى لجميع المخترعات الحديثة من الثلاجة إلى الصاروخ . ومن قبله عاشت فلسفة أرسطو وتصوره للكون عشرين قرنا ، وعاش طب ابن سينا سبعة قرون ، وجبر الخوارزمى سبعة قرون ، بينما فقدت النظرية النسبية معظم اهميتها بعد عشرين أو ثلاثين سنة .

ولكن الدعاية اليهودية جعلت من اينشتين ، لا أعظم علماء عصره فحسب ، بل أعظم مفكر فى تاريخ البشرية كله ، أعظم من نيوتن وأرسطو نفسهما ، حتى اصبح مضرب المثل : تقول «أذكى من اينشتين» او أعلم من أينشتين .

٢ ـ موشى ديان : ملأت الدعاية الصهيونية الدنيا ، بعد حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧ ، بصوره وأحاديثه وابتساماته الصفراء واللطعة التى يضعها على عينه العوراء ، وصوّرته بصورة العبقرية العسكرية الفذة ، التى تتضاءل أمامها عبقريات خالد بن الوليد وصلاح الدين ونابوليون ومونتجومرى .

ثم تبين أن الخطة التى استخدمها لضرب الطيران المصرى على الأرض وحسم بها الحرب فى ساعات ، منقولة بحذافيرها من خطة وضعها الحلفاء ونفذوها خلال الحرب العالمية الثانية ، بل وأنها ـ للأسف ـ كانت تدرس ضمن مناهج التاريخ العسكرى فى الكليات الحربية . ولكن من كانوا على رأس العسكرية المصرية فى ذلك الحين ، أغفلوها ولم يتوقعوا أن يستخدمها العدو الصهيونى .

وعندما سأله مراسل إحدى الصحف . كيف جازف بتنفيذ هذه الخطة القديمة المكشوفة ، أجابه بأنه كان مطمئنا الى «أن

المصريين لايقرأون» وهى مقولة لانملك إلا أن نسلّم بصحتها ، فى تلك الحالة على الأقل .

نفس هذا العبقرى العسكرى ، هزمه بعد ست سنوات من تحفته العسكرية الفريدة ، فلاح مصرى لانعرف اسمه حتى الآن ، بفكرة بسيطة لم تخطر على باله ، مؤداها أن الماء يزيح التراب . فهدم سده الترابى على ضفة القناة ، لا بستة قنابل ذرية كما كانت تقول حساباتهم ، بل ببضع مضخّات أو «مدافع مائية» فتحت الثغرات فى السد الترابى ، وفتحت الطريق لجيوش الفلاحين ، لكى تهزم لأول مرة ، تكنولوجيا الغرب وعبقرية اليهود مجتمعين ، وبينت أن موشى ديان كان قائدا عسكريا متوسط الذكاء ـ على أكثر تقدير .

ثانيا : عن آلام اليهود :

الجانب الآخر من الصورة ، هو صورة اليهودى المضطهد ، المطارد ، الذى يتعرض لكافة أنواع الاعتداء من جانب القوى الشريرة والدوافع الخسيسة فى نفوس الناس ، من الغيرة والحسد والكراهية غير المبرّرة .

وتردد أبواقهم الدعائية قصصا لا تنتهى من التاريخ القديم والحديث ، للتدليل على ذلك ، أهمها وأشهرها حكاية «الهولوكوست» ، أو النكبة الكبرى التى أصابت اليهود على يدى النازية قبيل الحرب العالمية الثالثة وأثناءها . ويروّجون بالذات إشاعة تقول إن هتلر قد أعدم أو قتل منهم ستة ملايين نفس ، بين معسكرات الاعتقال وغرف الغاز والأشغال الشاقة .

* وقد أثبت بعض المؤرخين أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير . وأن عدد اليهود الذين قتلهم هتلر لا يتجاوز ٥٠ الفا ، بينما بلغ عدد لمن قتلهم من الألمان أنفسهم ـ من غير اليهود ـ أضعاف هذا

الرقم . بل إن هذا الرقم نفسه يقلّ عن العدد الذى قتله الأمريكيون في ساعة واحدة فى مدينة واحدة ، بقنبلة واحدة من القنبلتين اللتين ألقوهما على اليابان ، ويقل عشرين ضعفا عن المليون أسير مسلم من المحاربين فى صفوف القوات السوفيتية ، الذين قتلهم هتلر لأنهم مختونون ـ مثل اليهود .

ولسنا هنا بصدد تبرئة هتلر ونازيته من جريمة ارتكبها أو لم يرتكبها ، فيكفيه إجراما عندنا أنه تسبب بسياسته فى اضطهاد اليهود ، إلى نزوح عدد كبير من يهود أوربا ليحتلوا بلادنا ويقيموا لهم فيها وطنا . وبذلك كان ـ من الناحية العملية ـ أداة من أدوات الصهيونية فى إنشاء وطن لليهود فى فلسطين .

وإنما يعنينا حرص الدعاية الصهيونية على التهويل فى مسألة اضطهاد اليهود ، وتذكير الناس كلما أوشكوا أن ينسوا ، بأنهم الشعب الذى أراد عدو البشر هتلر إبادته ، مما مكنهم من استصدار عديد من القوانين في جميع البلاد الأوروبية والأمريكية تقريبا ، تعتبر أقل مساس بأى يهودى من قريب أو بعيد ، جريمة يعاقب عليها القانون تحت اسم «معاداة السامية» . وجعلت اليهود المقيمين فى تلك البلاد ، يستظلّون بنوع من الحماية ، يشبه الحماية التى أضفاها الاحتلال الإنجليزى لمصر على الأجانب ، بقوانين الامتيازات والمحاكم المختلطة .

ورغم ذلك ، لا تكفّ أبواق الدعاية اليهودية عن إظهار اليهود فى دول أوروبا وأمريكا ، بمظهر المضطهدين الذين تمارس عليهم الأغلبية الوطنية أشكالا من الاضطهاد الخفى والتمييز العنصرى فى غيبة القانون ، مثلهم فى ذلك ، بل أكثر من ذلك ، مثل أقليات كالزنوج فى أمريكا ، والمسلمين فى بلغاريا ، والآسيويين فى إنجلترا .

ومن المؤسف أن من مشاهير كتابنا من يتلقف هذه الصورة بشبقيّها من الإعجاب والإشفاق ، ويروّج لها تلميحا وتصريحا دون

كلَل أو ملل . لاَيكاد يرتقى ذروة منبر ، من صفحة من مجلة أو عمود فى جريدة ، حتى يملأها بالحديث عن اضطهاد النازية لليهود ، أو يتغنى بعبقرية شخصية يهودية ، أو يشيد بتقدم اسرائيل .

وكلنا نعرف أن التقدم المزعوم لتلك الدولة ، ليس ناشئا عن عبقرية سكانها ولا عن يهوديتهم ، وإنما عن الدعم العلمى والمالى والتكنولوجى الذى تقدمه لها ـ بلا حدود ـ الإمبريالية الأمريكية والصليبية الأوروبية على السواء ، باعتبارها رأس رمح لهما فى جسد الامة العربية والعالم الإسلامى . كما أن من المعروف أن التهويل فى تقدير قوة العدو ، مهما كانت الأعذار المعلنة تحت شعار «اعرف عدوك وتعلّم منه» ، لايقل ضررا عن التهوين من شأنه .

نعود إلى سلمان رشدى وكتابه ، فنجد أنه قد حرص على أن يعزف على هذين الوترين المحببين إلى الصهيونية . وفى نفس الوقت ، قد تجنب بمنتهى الحرص والحذر ، أن يقع فى أى خطأ أو زلّة لسان ، تعرّضه لشبهة التعريض باليهود أو الصهيونية :

١ ـ فنجد أن الشخصية الوحيدة الجديرة بالإعجاب والإكبار ، من بين جميع شخصيات روايته ، والخالية من أى عيب (إلا الانحلال طبعا ، فهو لا يعتبر الانحلال عيبا) : هى شخصية بطلة التسلق ، ملكة الثلوج ، التى حرص على أن يمنحها اسما يهوديا لايقبل الشك : « ألى كوهين» كما حرص على أن يضفى عليها ، فوق العبقرية اليهودية التى جعلتها تقتحم أهوالا وتحقق معجزات ، هالات من الصفات الانسانية الرائعة والأخلاق النبيلة الكريمة ، من العفة والاخلاص ، والحلم والصبر على تهوّسات صديقها فاريشتا ، حتى بلغ به الجنون إلى أن يحطّم تذكاراتها ، رموز مجدها وعبقريتها ، فاعتبرت ذلك نقطة اللاعودة وقطعت علاقتها به .

ثم جعل ذلك المتهوس ـ كما رأينا ـ يقتلها دون مناسبة ، بعد عام ونصف من القطيعة ، من فوق قمة عمارة تحمل نفس الاسم

الذى حققت من خلاله مجدها وعبقريتها : «إيفرست» . وبذلك اكتملت صورة اليهودى النموذجية عند الصهاينة : العبقرى الذى ينتصر على جميع العقبات ويرتقى جميع القمم ، والشهيد المظلوم الذى تقتله الكراهية والجنون والتعصب .

٢ ـ فى كلامه عن اضطهاد الملوّنين فى لندن ، يضمّ اليهود إلى قائمة الأقليات المظلومة المغلوبة على أمرها ، والتى تضطهدها الأغلبية البيضاء المسيحية . مع أن الحقيقة هى عكس ذلك على طول الخط . فالأقلية اليهودية ـ بتضامنها وبتنظيماتها السرية ، وبالدعم الذى تلقاه من الأجهزة الصهيونية ، هى التى تضطهد الأغلبية البيضاء وغير البيضاء ، بما تفتحه تلك الأجهزة أمام اليهود من أبواب النجاح والشهرة والسيطرة ، وبما تغلقه من هذه الأبواب فى وجه منافسيهم ، دون أن يتجاسر أحد على أن يفتح فمه بكلمة احتجاج واحدة ، حتى لايتّهم «بمعاداة السامية» .

٣ ـ لم ينس أن يخرج عن طريقه لكى يحكى قصة عن نزوح أسرة آلى كوهين من بولندا هربا من الاضطهاد النازى ، تذكيرا للقارىء ـ بغير ضرورة درامية ـ بهذه النغمة التى تحرص أبواق الدعاية الصهيونية على النفخ فيها بمناسبة أو غير مناسبة ، مما أدى إلى انتحار أبيها ـ بعد ٤٠ سنة من انتهاء الحرب ، نتيجة عقدة الاضطهاد التى أصيب بها منذ شبابه ، ولم يبرأ منها طوال تلك السنين !

ثم أضاف إلى ذلك عنصرا جديدا يزيد من استثارة عطف القارىء ، بأن جعل أختها الشابة تموت غريقة فى حوض الاستحمام . وهى ميتة غريبة جدا ، ونادرة أو مستحيلة الحدوث .

افتعال وتلفيق لا علاقة لهما بالفن أو الأدب . ولكن ما شأن مثل ذلك الكاتب بالفن والأدب ؟ المهم هو اكتمال صورة اليهودى حسب النموذج المحدد .

٤ ـ فى المرة الوحيدة التى زلّ فيها لسانه بكلمة «العودة إلى أورشليم» ، أثناء حديثه عن الخمينى وتطلعه إلى العودة منتصرا إلى وطنه ، هرع إلى نفى أى شبهة يشتمّ منها القارىء ـ كما أسلفنا ـ أنه يشير إلى عودة المسلمين أو العرب إلى القدس ، مؤكدا أنه لايقصد بكلمة «أورشليم» إلا معنى الانتصار على الشر لا أكثر .

لكلّ هذه الأسباب ـ بالإضافة إلى المجرى العام للكتاب من إهانة لمقدسات المسلمين والكذب عليهم وعلى تاريخهم ودينهم بشتى صور الكذب والافتراء ـ كان من الطبيعى أن ترحب دار النشر اليهودية «بنجوين» بطباعة هذا الكتاب ، بعد أن حفيت قدما مؤلفه وهو يعرضه على دور النشر الأخرى ، لدرجة أنه ـ كما يقال ـ شرع فى أن يجمع المساهمات المالية الزهيدة من الدائرة المحيطة به من بنات الهوى فى لندن ، لكى ينشر الكتاب على حسابه ، لولا أن تداركته رحمة «بنجوين» .

وكذلك كان من الطبيعى أن تعلن الحكومة الإسرائيلية عن أنها آخذة فى ترجمة الكتاب إلى العبرية وطباعته فى إسرائيل ، لكى يتمتع كل يهودى بقراءة هذا النموذج الفذ من الأدب الراقى !

كما أنه من الطبيعى أن كل أجهزة الدعاية اليهودية والخاضعة للسيطرة الصهيونية فى العالم ، ومن بينها الإذاعة البريطانية ، أخذت تطبّل وتزمّر له ، باعتباره نوعا جديدا من الأدب الروائى ، يسمونه «سيكولوجيا الأحلام» .

× × ×

وقبل أن نغادر هذا الفصل عن صدى الكتاب عند اليهود ، لابد أن نشير إلى هدية اضافية أهداها مؤلفه الى الفكر الدينى اليهودى ، فوق ما التزم به من خدمة الدعاية السياسية للصهيونية . هذه الهدية هى تصويره للملاك جبريل ـ عليه السلام .

موقف اليهود الدينى من الملاك جبريل :

يروى الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره للقرآن الكريم [1] - قصة عن عداوة اليهود القديمة للملاك جبريل ، فى حديث طويل نقله عنه كثير من المفسرين ، يتلخص فى أن اليهود أعلنوا للنبى صلى الله عليه وسلم أنهم يرفضون أن يؤمنوا به ، بحجة أن القرآن يوحى به إليه من جبريل ، الذى يعتبرونه عدوّا لهم ، والذى يصورونه فى صورة المحبّ لسفك الدماء وإشعال نار الحرب .

فأنزل الله الآيتين الكريمتين من سورة البقرة : « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّه نَزَّلَهُ عَلىَ قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله وَهُدًى وَبُشْرىَ لِلمُؤْمِنِينْ ، مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنّ الله عَدُوٌ للكافرين» .

وتكشف هذه القصة ، من بين ما تكشف ، عن الفرق الشاسع بين المفهوم الإسلامى ، والمفهوم اليهودى للملائكة . فالإسلام يعتبرهم عبادا طائعين لله ، حاملين لرسالاته ، صادعين بأوامره لايحيدون عنها . بينما يراهم اليهود أشخاصا ذوى إرادة منفصلة ، يعادون قوما ويشايعون قوما على هواهم ، وتجوز عليهم الغفلة أو الخيانة أو حب سفك الدماء .

قارن بين هذه الصورة اليهودية عن الملاك جبريل ، وبين الصورتين المتلازمتين اللتين صوّره بهما سلمان رشدى تحت اسم واحد : مرة فى صورة الإنسان المتهوّس الذى يهوى سفك الدماء بلا سبب ، ومرة فى صورة الملاك الخائن أو الغافل الذى يحرّف كلام الله الملقى إليه لكى ينزل به على قلب النبىّ . ألا ترى أنهما مطابقان تماما للمفهوم اليهودى للملائكة ، ومناقضان تماما للمفهوم الإسلامى القرآنى ؟

---

(١) تفسير الطبرى : جامع البيان عن تاويل القرآن - المجلد الثانى - طبعة دار المعارف - ص ٣٣٧ وما بعدها - تفسير الآيتين ٩٧ ، ٩٨ من سورة البقرة .

في هذا دليل جديد ، نضيفه إلى الأدلة التى ذكرناها على وجود أصابع اليهود وبصماتهم التى لاتخطأ فى تأليف «قصة الغرانيق» ، ودسّها - هى وكثير غيرها - على التراث الإسلامى ، مما يسميه علماء المسلمين «الإسرائيليات» ، ويجهدون فى تنقية التراث الإسلامى منها .

ثم قارن مرة أخرى بين تلك الصورة اليهودية عن الملاك جبريل ، وبين ما أشرنا اليه عن اعتقاد بعض الطوائف من غلاة الشيعة ، ومن بينهم تلك الطائفة الغرابية التى نعتقد أن مؤلف الكتاب تربّى فيها ، والتى تقول إن جبريل قد أخطأ الطريق ، أو خان الأمانة ، فسلم الرسالة التى كان المقصود بها عليًا بن أبى طالب ، إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بل إن هذه القصة الأخيرة ليست فى الحقيقة إلا صدى لقصة يرويها كتاب اليهود ، العهد القديم من الكتاب المقدس ، عن عيسو ويعقوب وَلَدَىْ إسحق بن إبراهيم عليهم السلام [1] ، تتلخص فى أن يعقوب احتال على أبيه ليأخذ لنفسه البَرَكة (أى : الرسالة والنبوة) التى كانت من حق أخيه التوأم الأكبر عيسو . تنزه أنبياء الله ورسله عن ذلك .

يعتقد كثير من المفكرين والمؤرخين الإسلاميين ، أن أغلب المعتقدات الخارجة عن الإسلام من عقائد غلاة الشيعة على وجه الخصوص ، وبعض معتقدات طوائف الشيعة «متوسطة الغلوّ» أيضا ، قد دسّها اليهود على الإسلام سواء منهم من بقى على دينه ، أو من تلبّس بالإسلام وهو منه براء ، والذين كان لهم دور أساسىّ فى إثارة الفتنة الكبرى التى وقعت بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أو على الأقل فى إذكاء نارها ، وتحويلها من خلاف سياسىّ بين المسلمين فى مفترق طرق حاسم من تاريخهم ، إلىّ انشقاق عميق دائم فى العقائد والشرائع .

---

(١) الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر التكوين - الاصحاح ٢٧

ثم يأتى سلمان رشدى بعد ١٤ قرنا من تلك الفتنة ، نموذجا حيا - حتى الآن - لتلك الدسيسة ، فيُسمع اليهود كل ما يحبون سماعه عن الإسلام ، سواء بفضل تربيته الدينية الأصلية ، أو بكفره المستجدّ ، أو بطمعه الدنيوى فى أن يحظى كتابه الشيطانى برضاء الصهيونية العالمية وأموالها .

توقيت ظهور الكتاب عند الفكر اليهودى :

تعيش الدعاية الصهيونية العالمية منذ حوالى عامين مأزقا لم يمرّ عليها مثله من قبل ، والفضل الأول فيه هو بلا شك **لانتفاضة الشعب الفلسطيني** الواقع تحت الاحتلال اليهودى ، والتى قوضت أمام العالم صورة الدولة الإسرائيلية الديموقراطية المتحضرة ، التى تعامل جميع «مواطنيها» على قدم المساواة ، والتى ينعم فى ظلّها الفلسطينيون بالرخاء والتقدم ، ويعيشون في وداعة وطمأنينة ورضى . وكشفت الوجه الحقيقى للدولة اليهودية ، بأنها أشد الدول التى عرفها التاريخ المعاصر عنصرية وهمجية . وأن الفلسطينيين الذين تحتلّ أرضهم لايرضون بهويّتهم القومية وأستقلالهم السياسى بديلا ، ولاتستهويهم المغريات الرخيصة من الرخاء الزائف والديموقراطية الكاذبة .

ولانريد أن نهوّل من قيمة الأضرار التى ألحقتها ، ومازالت تلحقها الانتفاضة بالدولة الصهيونية ، وبصورة اليهودى عندما يحكم ويتحكم ، ولكن من المؤكد أن تلك الصورة التى صُنعت بدقّة وُصقلت بعناية على مدى أربعين عاما ، قد تحطمت بشكل يستعصى على الإصلاح ، من أول حجر ألقاه أول فتى فلسطينى :

«يَرمْى حَجَراً أو حَجَريْن .·. فيولَدُ وطنٌ فى العَيْنَين »

.. كما يقول نزار قبانى . وكل يوم يمرّ على استمرار هذه الانتفاضة ، يزيد هذه الصورة تشويها ، بل يعرّى حقيقتها فى

الواقع ـ وحقيقة الدولة التى تقف وراءها ، مجرّد دولة مغتصبة لوطن شعب آخر ، تواجه مقاومة وطنية متصاعدة ، مثل مقاومة فرنسا للاحتلال النازى ، أو مقاومة الجزائر للاحتلال الاستيطانى الفرنسى .

وهكذا التقت مصلحة الصهيونية مع مصلحة الصليبية ـ وهما تلتقيان فى معظم الأحيان ـ فى توقيت حيوىّ بالنسبة لكل منهما ، على تمويل وترويج هذا الهجوم المضاد على الدين الإسلامى ، الذى يقترن فى ضمير العالم ـ وبحقّ ـ بالعروبة والعربية ، ومحاولة لتعويض الخسارة الكبيرة التى لحقت بالفكر والدعاية اليهوديتين من أحجار الانتفاضة .

ـ صدى الكتاب عند عامة المسلمين ـ

أولا : عند الجماهير المسلمة :

كان أكثر المسلمين شعورا بالإهانة التى لحقت بهم وبدينهم من صدور هذا الكتاب ، هم مسلمو شبه القارة الهندية ، والمسلمون المغتربون فى بريطانيا .

وكان من الطبيعى أن تصدر أول ردود الأفعال الجماهيرية وأكثرها حدة ، من هذين القطاعين من الجماهير المسلمة ، لأن لغة القراءة الأولى عندهم هى الإنجليزية . فالكتاب موجه مباشرة إليهم ، موضوع تحت أنظارهم ، يبصرونه ويقرأونه ، ويدركون على الفور مدى استهتار كاتبه بكل معنى شريف من معانى عقيدتهم . بينما وقف الحاجز اللغوى حائلا دون إدراك الشعوب الإسلامية الأخرى ، القارئة بغير اللغة الإنجليزية ، لأبعاد هذه الاهانة ، إلا من خلال جذاذات متناثرة ، تحملها إليهم بعض صحفهم وكتبهم ، فلا يتبينون منها الصورة الحقيقية الكاملة كما جاء فيه .

كما كان من الطبيعي أن يشعر هذان القطاعان من المسلمين بصورة خاصة ، بالإهانة المزدوجة التي ألحقها بهم صدور الكتاب عن شخص مفترض فيه أنه ينتمي إليهم ، سواء من ناحية الأصل : فهو هندي المولد باكستاني الجنسية قبل أن يتجنس بالجنسية الإنجليزية ، أو بالتواجد : حيث يقيم في بريطانيا .

ونجح مسلمو الهند في إلزام الحكومة الهندية بمنع الكتاب ، احتراما لإرادة مواطنيها المسلمين ، بينما منعته حكومتا بنجلاديش والباكستان من تلقاء ذاتهما ، مثلهما مثل جميع حكومات الدول الإسلامية الأخرى . ولكن هذا الإجراء وحده لم يكن كافيا ـ فيما يبدو ـ لتهدئة المشاعر في الباكستان ، فقام المتظاهرون بمهاجمة السفارتين البريطانية والأمريكية في إسلام أباد ، باعتبار هاتين الدولتين هما أسّ الفساد . فأطلقت الشرطة الرصاص عليهم ، وسقط ستة شهداء من المتظاهرين يوم ١٢ / ٢ / ١٩٨٩ ، مما دلّ على وعي الجماهير المسلمة في باكستان بالدوافع الحقيقية لظهور هذا الكتاب ، والقوى المحركة لكاتبه . فليست المسألة مسألة كاتب ملحد أو مارق ، وإنما هي حرب فكرية لايهدأ أوارها بين الإسلام والصليبية .

أما المسلمون المغتربون في بريطانيا ، فقد قاموا بالعديد من المظاهرات والاحتجاجات ، مطالبين الحكومة بمنع الكتاب ومحاكمة كاتبه ، ومعاقبة ناشريه ، مما دلّ أيضا على أنهم لم يبتلعوا الطُعم الذي ألقاه إليهم المؤلف ، بوقوفه موقف المدافع عن المغتربين ضد اضطهاد الأجهزة الحكومية ، وسوء معاملتها لهم ،مما وصفناه في حينه بأنه دفاع قوي وعادل ، في هذه الجزئية وحدها .

عبّر مسلمو بريطانيا بذلك ، عن أن دينهم وهويتهم وشخصيتهم أعزّ عليهم من تسهيلات إجرائية ، أو معاملات حكومية طيبة ، يطالب لهم بها مؤلف الكتاب ـ مقابل أن يهينهم في أعز مقدساتهم وأشرف معتقداتهم ، مثلهم في ذلك مثل الثائرين الفلسطينيين تحت

الاحتلال الإسرائيلى . فجاء موقف هؤلاء وأولئك ، مصداقا للآية الكريمة من سورة التوبة :

«قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأبناؤُكُمْ وإخوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وَعَشِيرتُكُم وأمْوالٌ اقترفْتموها وتِجارَةٌ تَخشَوْنَ كَسَادَها وَمَساكِنُ تَرضَوْنَها أحَبَّ إليكمْ مِنَ الله ورسولِهِ وَجهادٍ فى سَبِيله فَتَربَّصُوا حتَّى يأتِيَ الله بِأمْرِه والله لايهْدِى القَوْمَ الفاسِقِينَ» .

ثانيا : عند الحكومات الإسلامية :

أما الحكومات الإسلامية ، فقد أجمعت كما قلنا على منع الكتاب . وكانت أولاها ـ كما هو متوقع ومنطقى ـ المملكة العربية السعودية ، التى منعت الكتاب بعد أيام من صدوره فى سبتمبر ١٩٨٨ . ثم توالت قرارات المنع من شتى الحكومات ، ومن بينها الحكومة المصرية ، وإجراءات الاحتجاج متفاوتة الشدة . ورفع بعض المسلمين دعاوى أمام المحاكم البريطانية ، إحداها رفضتها المحكمة ـ كما أسلفنا ـ والثانية مازالت منظورة أمام المحكمة الثانية .

ومسألة المنع هذه محل نظر كثير فى رأينا . فهى وإن كانت تبدو ـ من حيث المبدأ ـ ضرورية للتعبير عن الرأى الرسمى للدولة ، فى رفضها ما تضمنه الكتاب من هجوم على الإسلام ، وخاصة بالنسبة لدولة كالمملكة العربية السعودية ، أرض المقدسات الإسلامية ، والمركز الدينى للعالم الاسلامى ، وبالنسبة لمصر وطن الأزهر وأكبر الدول العربية ، إلا أن مثل هذه القرارات تكاد تكون عديمة الجدوى من الناحية العملية . بل قد تزيد أضرارها الفعلية على فائدتها النظرية والمبدئية .

وربما كانت لدى كاتب هذه السطور حساسية خاصة لمسألة منع الكلمة المكتوبة بشكل عام ، بما تحمله من تسلط على عقل القارىء ، واعتباره قاصرا أو معتوها يستحق الحجر عليه ، وتحديد ما يقرأه وما لايقرأه بمعرفة سلطة عليا مسئولة عنه .

ولكن الأدهى من ذلك هى النتيجة العملية - وهى معيارنا الأول فى الحكم على المواقف - من تشويق القارىء وإثارة فضوله للاطلاع على الكتاب الممنوع ، الذى ربما لم يكن ليبالى به لو كان مطروحا على الأرصفة - على أساس أن كل ممنوع مرغوب . وخاصة أنه فى عالمنا هذا الذى تعددت فيه وسائل المواصلات الدولية وتشعبت ، وكثرت عمليات النقل والتنقّل بين بلدان العالم المختلفة برّا وبحرا وجوّا ، يصبح من المستحيل فرض رقابة حقيقية تمنع دخول نسخة أو صورة من الكتاب الممنوع .

لا أعرف حكومة من دول الشرق أو الغرب استطاعت بشكل كامل وعملى ، منع دخول كتاب ممنوع ، أو حتى مجلة جنسية أو فيلما أزرق أو شريطا أحمر . مع الفارق الكبير بين الكتاب الأسود والفيلم الأزرق فى نوعية الأشخاص الذين يخاطبهم . فالفيلم يستطيع أن يشاهده ويتأثر به كل ذى عينين ، طفلا كان أم شيخا ، أميّا كان أم متعلما . أما الكتاب - وخاصة إذا كان مطبوعا فى لغة أجنبية - فلا تهتم به إلا الأقلية التى يعنيها موضوعه ، من بين أقلية قارئة بتلك اللغة ، من داخل الأقلية المثقفة التى تهتم بالكلمة المكتوبة أصلا . مما يجعل المهتمين بالكتاب يعدّون على أطراف الأصابع . وهم فى الغالب على درجة من الوعى لا تقل عن وعى الموظفين الرسميين الذين قرأوا الكتاب وحكموا بمنعه (وقد بيّن الأستاذ (الحاج) صلاح حافظ هذه القضية وشرحها شرحا وافيا فى مقالات له بأخبار اليوم) .

ثم كيف نطالب المثقفين بأن يدينوا عملا أدبيا - إن صحّ إطلاق هذا التعبير على الكتاب الذى نحن بصدده - لم يروه ولم يطّلعوا عليه كاملا ، وإنما سمعوا به سمعا ، أو قرأوا عنه نتفا متناثرة غير مفهومة ؟ كنا نتمنى - على الأقل - أن يسبق قرار المنع ، أو يصاحبه ، صدور بيان تفصيلى من هيئة من الهيئات التى يتطلع الناس إلى رأيها : مثل الأزهر الشريف أو وزارة الثقافة أو اتحاد

الكتّاب ، يتضمن عرضا لآراء مؤلفه ، وتفنيدا لما فيه من باطل .
وهو ما حاولنا - جهد المقلّ - أن نقوم به فى هذه الدراسة .

- صدى الكتاب عند حكومة إيران -

ثم جاء أعلى أصوات الاحتجاج الرسمية دويًا وأشدها عنفا ، فى صورة فتوى من الإمام الخمينى فى ١٤/ ٢/ ١٩٨٩ (بعد خمسة أشهر من صدور الكتاب) ، بإهدار دم المؤلف (والناشرين) باعتباره مرتدا عن الإسلام يحل قتله . ثم بتصريحات من ممثلين للحكومة الإيرانية ، بأنها قد رصدت مبلغ ٤ ملايين دولار لاغتيال سلمان رشدى ، وأن السهم قد نفذ بالفعل ، وأنه فى الطريق إلى صدره لا محالة .

وفى تقديرى أن سلمان رشدى لم يكن يحلم بأن يظفر اسمه أو كتابه بجائزة أعظم من هذه الجائزة . بل لقد تمنى بالفعل حدوثها ، أو تنبأ بها ، فى تصويره لنفسه فى صورة شاعره بعل - صبىّ القوّادين - فى الفصل الثالث من رسالته ، حيث أصبح بين يوم وليلة ، هدفا عسكريا لأعلى الحكومات الإسلامية صوتا وأقواها حناجر وأكثرها غلوًا ، وشهيدا حياً من شهداء حرية الكلمة وضحاياها ، مثله فى ذلك مثل سقراط ، وجاليليو ، وأبى حنيفة النعمان !

كانت أول نتيجة «عملية» ، وأؤكد مرة أخرى على هذه الكلمة التى أعتبرها المعيار الذى لايخطىء للحكم على المواقف ، أن ارتفع توزيع كتابه من خمسين ألف نسخة فى خمسة أشهر ، إلى مائة ألف فى أيام قلائل ، حتى أوائل مارس ١٩٨٩ . وربما يكون قد وصل منذ ذلك الحين إلى نصف المليون أو أكثر .

-- وكانت النتيجة الثانية ، أن أضفت الحكومة البريطانية حمايتها عليه ، باعتباره مواطنا بريطانيا مستهدفا من جهة أجنبية .

مما أتاح لها الفرصة لتأكيد الصورة الكاذبة عن أنها وطن الديموقراطية ، وملاذ الخائف المطارد ، وحامية حمى حرية الرأى والتعبير .

وكانت **النتيجة الثالثة** ، أن انطلقت ألسنة وأقلام وميكروفونات كل الأجهزة الدعائية المعادية للإسلام ، تشهّر بهمجّية المسلمين ودمويّتهم ، وتؤكد الصورة التى رسّخها الفكر الصليبى والصهيونى قرونا طويلة فى أذهان الناس عن الإسلام والمسلمين .

وكانت **النتيجة الرابعة** ، أن كثيرا من المسلمين أنفسهم ، تساءلوا فى فضول عن هذا الكتاب وهذا الكاتب ، اللذين يستحقان أن يصدر عليهما حكم الإعدام فى كلمة واحدة وبلا محاكمة ، ويعلن عن تنفيذه المحتوم «بالريموت كنترول» . وتضاعف عدد الذين تشوّقوا لقراءة الكتاب ، ممن لم يكونوا ليبالون به أو يهتمون بموضوعه . بل لابد أن من بينهم من شعر فى قرارة نفسه بالإشفاق والتعاطف مع هذا الكاتب المسكين ، الذى أشهرت عليه حكومة دولة إسلامية الخناجر والسهام ، بدلا من أن تقارعه الحجة بالحجة ، والرأى بالرأى ، أو أن تطالب ـ مثلا ـ بمحاكمته محاكمة إسلامية عادلة .

ومن المستحيل عقلا ، أن تكون حكومة الخمينى قد غاب عن فطنتها أن تتوقع حدوث هذه النتائج كلها أو بعضها . كما أن من المستبعد أن تكون قد جرفتها العاطفة المتأججة والانفعال الشديد إلى اتخاذ هذا الموقف ـ بعد خمسة أشهر كما ذكرنا ـ فالحكومات غالبا ، بما فيها حكومة إيران ، لاتتخذ مواقفها وقراراتها الهامة إلا بناء على دراسة وتحليل ، وموازنة بين البدائل المختلفة ، وتخطيط لمواجهة ردود الأفعال إلخ ...

فمن حقنا إذن ، أن نتساءل : لماذا سكتت حكومة إيران خمسة أشهر كاملة ، لاتفتح فمها بكلمة ، ثم فاجأت المسلمين وغير

المسلمين بهذا الموقف ، بعد ان تصاعدت حدة الاحتجاجات فى أنحاء العالم ضد الكتاب ؟ ولماذا **بعد يومين فقط** من سقوط ستة شهداء فى مظاهرات إسلام أباد ؟

هل خشيت أن تسرق الحكومات والجماهير الإسلامية «الكاميرا» منها ، وتسحب البساط من تحتها ، وهى الحريصة على أن تصوّر نفسها فى صورة أشد الحكومات تمسكا بالإسلام وغيرة عليه ؟

هل خشيت ـ بعد مظاهرات إسلام أباد ـ أن ينقلب المسلمون فى أنحاء العالم ـ أو يكونوا قد انقلبوا بالفعل عليها ، بعد أن اكتشفوا مذهبية سلمان رشدى ؟ وبعد أن تبين للناس أنه شيعىّ ، أو على الأقل محسوب على الشيعة عند أهل السنّة ، كما هو محسوب على المسلمين عند غير المسلمين ؟ فأرادت أن تبرّىء ساحتها ، وتوهم الناس أنها أشد غيرة على الإسلام من جميع المسلمين : شيعة وسنة ، فاتخذت هذا الإجراء الدعائى الرنّان ، الضارّ بالإسلام والمسلمين من جميع جوانبه ـ مثل تلك الدبّة القديمة التى قتلت صاحبها وهى تحاول أن تهش عن وجهه ذبابة ؟

هل خشيت أن يقرأ الناس ويكتبوا عن القصيدة العصماء المشبوهة ، التى مدح بها سلمان رشدى الخمينى ورفعه بها فوق الصحابة ، وفوق آل البيت ، وفوق النبى نفسه ، والتى ذكر فيها العراق بالاسم الوثنى القديم «بابل» ، لقد كان يكفى لدرء هذه الشبهة ـ لو كان الأمر كذلك ـ أن يعربوا عن رفضهم لهذه القصيدة وتبرئهم منها ، أو عن أنهم يعتقدون ـ كما نعتقد ونتمنى على الله أن يكون اعتقادنا صائبا ـ أنه إنما قصد بها إلى أن يستظل بظلّ شخصية إسلامية شهيرة ، أو أن يحتمى به ، أو أن يتمسح فيه .

أقصى ما يحملنا عليه حسن الظن بالحكومة الإيرانية ، أن نعتبر هذه الفعلة عملا دعائيا خالصا لوجه السياسة ، لا لوجه الله أو

الدين أو المذهب ، أرادوا به شيئا من التعويض المعنوى عن فشلهم العسكرى فى اجتياح العراق ، وفشلهم المتكرر فى الاعتداء على أقدس حرمات المسلمين فى مكة المكرمة . وأن يكون إعلانهم عن الملايين الأربعة ونفاذ السهم إلخ .. ضربا من التهويش :

نتمنى أن يكون ظننا هذا صحيحا ، لأنه ليس أسوأ من التهديد بالقتل إلا القتل نفسه ، ولأن الكلام لايموت بموت صاحبه ، وإنما يكتسب عند الناس قوة وشهرة لايستحقهما ، وخلودا ليس أهلا له .

ولعلّ مما يدعم هذا الظن عندنا ، أن الحكومة الإيرانية قد خالفت ، فى هذه الحالة وحدها ، السّنة التى استنّتها جميع الجماعات والهيئات الإرهابية فى العشرين سنة الماضية ، وهى أن تقوم بالفعل بعملية الاغتيال أو التفجير أو الاختطاف ، ثم تعلن بعد ذلك - لاقبل ذلك - عن «مسئوليتها» عن العملية . فلماذا خالفت الحكومة الإيرانية هذه السنة ، فأتاحت الفرصة «للضحية» لكى يختفى ويتحصّن وراء حماية الحكومة البريطانية ؟

ومع ذلك فإن نص الفتوى التى أصدرها الخمينى ، تجعلنا نرى أن الإسراف فى حسن الظن على هذه الصورة فى غير محله ، وأن للحكومة الإيرانية أهدافا أخرى ، بجانب عملية التهويش هذه وبالإضافة إليها .

فلنقرأ معا نصّ الفتوى ، التى كتبت باقتضاب شديد ، واختيار دقيق للألفاظ :

«اننى ابلّغ جميع المسلمين فى العالم بأن مؤلف الكتاب المعنون «الآيات الشيطانية» الذى ألف وطبع ونُشر ضد الإسلام والنبى والقرآن ، وكذلك ناشرى الكتاب الواعين بمحتوياته ، قد

حُكموا بالموت . وعلى جميع المسلمين تنفيذ ذلك أينما وجدوهم ، كى لايجرؤ أحد بعد ذلك على إهانة الإسلام ، ومن يقتل فى هذا الطريق فهو شهيد »
(انتهت الفتوى)

حكومة الخمينى «تبلّغ» المسلمين رأيها فى الكتاب ومؤلفه وناشريه ، بعد أن صدر بخمسة أشهر ، وبعد أن وُزعت منه خمسون ألف نسخة ، وبعد أن سقط ستة شهداء من أهل السنة أثناء مظاهرات الاحتجاج عليه ! صحّ النوم !

وحكومة الخمينى ، لاتستخدم التعبير الشامل الذى تكرر استخدامه فى هذا الصدد وهو «إهانة مقدسات المسلمين»، وإنما تذكر على سبيل الحصر ثلاثة عناصر محددة هى : الإسلام ، والنبى ، والقرآن ، وهى المقدسات الأساسية - نعم ، ولكنها أيضا المقدسات المشتركة التى يُجمع على احترامها المسلمون جميعا . أما المقدسات الآخرى اللصيقة بهذه الثلاثة الأساسية ، والتى شعر غالبية المسلمين بالأهانة إزاء إهانة المؤلف لها ، فلا تعنى حكومة الخمينى فى قليل أو كثير ، لأنها لاتعنيها مشاعر بقية المسلمين من غير مذهبها . وسنلخّص هذه العناصر فى النقط الأربع التالية :-

١ - إهانة الروح الأمين الذى نزل بالقرآن على قلب النبى ، ووصْفُه بالخيانة تارة وبالغفلة تارة أخرى .

٢ - إهانة بيت الله الحرام ، الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ووصْفه بأنه معبد وثنى يعبد فيه حجر أسود ،مُقام فى مدينة اسمها جاهلية .

٣ - إهانة صحابة رسول الله والكذب عليهم ، ومن بينهم ، بل فى مقدمتهم : أبو بكر الصديق أول صاحب لرسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، ثم الفاروق عمر ، هادم إيوان كسرى ومطفىء نار المجوس ومنتزع بيت المقدس من أيدى الروم .

٤ ـ إهانة أزواج النبى ، أمهات المؤمنين بنصّ القرآن ، وعلى رأسهن «عائشة» ، تلك الحميراء التى أمرنا رسول الله أن نأخذ نصف ديننا عنها ، والتى قال لها على بن أبى طالب ، بعد وقعة الجمل التى انضمت فيها إلى خصومه : «كيف حالك يا أماه ؟»

ولكن الفتوى المذكورة لاتذكرها صراحة أو ضمنا ، لسبب بسيط ، هو أن إهانة هذه المعانى الشريفة ليست فى عرف حكومة الخمينى إهانات ، أو خروجا على الأدب ، أو فسوقا يعاقب مرتكبه بكل عقاب دون الموت ، أو كفرا يعاقب عليه بالموت ، بل واجبات وفرائض يفرضونها على أتباعهم ، ولايعتبرون إيمانهم ولاعملهم كاملا إلا إذا ارتكبوها .

حيلة بارعة ، وحركة التفافية سينمائية متقنة ، تضرب بها حكومة الخمينى عصفورين بحجر واحد ، فتخلى مسئوليتها عن إلحاد المؤلف وكفره وتجرؤه على الإسلام ، وفى نفس الوقت : تضمن للكتاب ومؤلفيه وناشريه شهرة لايستحقونها ، وانتشارا لم يكونوا يحلمون به ، مكافأة لهم على إهانة مقدسات المسلمين .

ودليل جديد يقدمونه إلينا على أن أعلى الأصوات ضجيجا ، وأكثرها غلوّا ، هى ذاتها أكثر الأصوات ضررا وابتعادا عن المبدأ الذى ترفع شعاراته وتهتف بحياته .

ومن حسن الحظ أن الغالبية العظمى من علماء المسلمين ، المتفقهين حقا فى شريعة دينهم ، من شيعة وسنّة ، لم يسقطوا فى هذا الكمين ، ولم يبهرهم بريق هذه الحركة الاستعراضية ، رغم عدم اطلاعهم على الصورة الكاملة لمحتويات الكتاب . فاعترضوا فى شبه إجماع ـ على فتوى الخمينى ، بشتى صور الاعتراض ، التى نشرتها الصحف فى حينها ، واخترت منها مثالين اثنين أوردهما فيما يلى :

١ ـ رأى فضيلة مفتى جمهورية مصر العربية ـ الشيخ محمد سيد طنطاوى :

صرح فضيلته لمجلة المصور القاهرية [١] ، بأن « خير علاج لأمثال هؤلاء أن يُقرأ الكتاب ويُردّ عليه ردّا علميا ، بحيث تزهق الأباطيل التى اشتمل عليها الكتاب ، ويعرّى صاحبه ، ويبيَّن خطأه ، وأنه قد افترى على الله كذبا فيما قاله . أما عملية القتل فهذه مسألة لاتجوز إلا إذا ثبتت عليه جريمة يستحق عليها القتل . والذى يقوم بتنفيذ العقوبة هو الحاكم المسئول !

٢ ـ رأى آية الله روحانى ، رئيس الطائفة الشيعية فى أوربا :

قال فى تصريح له لمجلة فرنسية ، أعادت نشره جريدة «النهار » اللبنانية : [٢] « قرأت مقتطفات من الكتاب نشرتها بعض الصحف حول الإسلام والقرآن . وبحسب الشريعة الإسلامية هو مذنب ، لكننى لا أستطيع أن أقرر نوع العقوبة . والمذهب الشيعى يهدر دم المذنب فى هذا الموضوع . وليس ذلك قبل محاكمته والتأكد مما إذا كان الذنب مقصودا أم غير مقصود . وبدون هذه المحاكمة يصير إهدار دمه خروجا على الشريعة الإسلامية . وحرية التعبير هى من بين المبادىء الاسلامية الأساسية . إذن فالمحاكمة ضرورية . ولو كنت بين القضاة فى مثلها لأدنت «رشدى» على كونه مرتدا ؛ فهو قد خان الإسلام بالتأكيد . ولكننى لن أعتبر عقوبة الموت هى المناسبة ، ففى تقديرى يجب مراعاة قانون الزمان والمكان . فإذا كان فى تطبيق القانون الإسلامى ما يؤثر على الهالة التى للإسلام ، فيجب تحاشى تطبيق هذا القانون ... » .

---

(١) المصور : عدد ٣/٣/١٩٨٩

(٢) النهار : عدد ٤/٣/١٩٨٩

ومازال سلمان رشدى - حتى كتابة هذه السطور - حيا يرزق - آمنا مطمئنًا فى كنف أسياده البيض وتحت جناحهم ، يجمع حصيلة كتابه المتزايدة ، كما يجمع القرد حبات الفول الملطخة بالوحل من تحت أقدام الصبية ، ويردد الحكمة التى يعتبرها خلاصة تجربته :
«من أجل أن نولد من جديد ، لابد أن نموت أولا» .
وصدق - فمن أجل أن يولد غراب أبيض ، لابد أن يموت إنسان ذو كرامة .

الباب الخامس

أصل الداء ، وأول الدواء

آن لنا أن نطوى كتاب سلمان رشدى ، وسيرته ، و"أرزقيته" ، وأن نتأمل الأسباب الحضارية التى أتاحت لمثل هذه الظاهرة أن تنشأ ، والآفة التى أصابت جسد الأمة الإسلامية ، فجعلت من الممكن أن يصدر كتاب بهذه الصورة : فمهما كان رأينا فى صاحبه ، لا نستطيع أن نتغافل عن الأسباب الموضوعية التى أدت ، أو مهدت لظهوره .

وفى رأيى أن هذه الآفة ، تتلخص فى سبب واحد ، هو تدهور حال اللغة العربية فى العالم الإسلامى عامة ، وفى العالم العربى على وجه الخصوص .

اللغة !... اللغة !.. لو كررت هذه الكلمة ألف مرة ، وكتبتها بأكبر حروف المطبعة ، ما كانت كافية للدلالة على ارتباطها الوثيق بالقيم والعقائد والمفاهيم الإسلامية ، ولا على ضرورتها للمحافظة على هذا الدين فى وجه الأعاصير التى يتعرض لها .

الجذور اللغوية فى المحيط الاسلامى

لقد أتى على العالم الإسلامى حين من الدهر ، كانت فيه اللغة العربية هى اللغة الدولية المستخدمة بين المثقفين من كافة الشعوب الإسلامية ، يتفاهم بها ـ نطقا وكتابة ـ المثقف الصينى المسلم مع نظيره النيجيرى أو البخارى أو الهندى . لأنها كانت لغة الثقافة ولغة العلم ، لا العلوم الدينية فحسب ، بل العلوم كلها . وكانت لغات أخرى كالفارسية ، تقوم بهذا الدور بصورة جزئية ، وخاصة فيما بين البلاد الآسيوية الواقعة شرق الجزيرة العربية .

وقد تغير هذا الحال الان ، فاخذت اللغة الإنجليزية خاصة ، تشاركها بعض المشاركة لغات اخرى كالإسبانية والفرنسية والروسية ، تلك المكانة القديمة التى كانت للغة العربية فى العالم الإسلامى . ولا يقتصر انتشارها ودوليتها على العالم الإسلامى وحده ، بل على العالم كله شرقه وغربه . فالإنجليزية الان هى لغة التعامل اليومى فى السفر والسياحة والعلاقات المالية والاقتصادية والسياسية ، وكذلك فى العلوم والثقافة والفنون .

ولسنا بصدد البحث فى الأسباب التاريخية لهذه الظاهرة ، ولا الوقوف على الأطلال والبكاء على الأمجاد القديمة ، او إنكار الحقائق والمكابرة فيها . وإنما علينا أن نتفهم هذه الصورة الجديدة ، ونسعى جهد استطاعتنا لمواجهتها ، وتجنب أكبر قدر

ممكن من الأضرار الناتجة عنها على عقيدتنا وتراثنا ، وعلى قدرة الشعوب المسلمة على التواصل والتفاهم والتماسك ، فى ظل الظروف الجديدة .

وسأروى للقارىء حادثة بسيطة مرّت بى ، ولا شك أن كثيرا من القراء قد صادفهم الكثير من أمثالها ، كى نستدل منها على مدى ارتفاع الحاجز اللغوى ، ووقوفه حائلا دون تبادل المعلومات بين ذوى العقيدة الواحدة ، بل وقوفه حائلا دون ممارستهم الصحيحة لشعائر دينهم نفسها .

أذكر اننى أثناء العودة من رحلة الحج ، توقفت أنا ومجموعة من الاصدقاء والأقارب فى مطار جدة ، مدة يومين أو ثلاثة ، فى انتظار طائرة العودة إلى القاهرة ، وكان بجوارنا زوج وزوجته تركيّان ، ينتظران طائرتهما أيضا ليعودا إلى بلدهما . ولاحظنا أن الزوجة لا تكف أبدا عن البكاء الصامت ، مسدلة خمارها على وجهها ، وملتفتة دائما إلى الحائط ، لا تكاد تأكل أو تشرب ، رغم محاولات زوجها التسرية عنها والتخفيف من حزنها .

وحاولنا أن نفهم من الزوج سبب المشكلة . فكانت أول عقبة واجهناها أنه لا يكاد يعرف حرفا من اللغة العربية ، وأننا بالمثل نجهل لغته التركية جهلا تاما . وحاولنا أن نتفاهم معه ببضع كلمات معدودة نعرفها من اللغة الألمانية التى يجيدها مع بضع كلمات يعرفها من اللغة الإنجليزية . وبعدلأى . فهمنا أن زوجته تعتقد أنها لم تحج ولم يكتب لها ثواب الحجة ، لأنها لم تقبل أو تلمس الحجر الأسود ، رغم محاولاتها المستميتة اختراق الزحام فى جميع المرات التى طافوا فيها بالكعبة المشرفة ، حيث استطاع هو وحده أن يلمسه بأطراف أصابعه ، وفشلت هى فى أن تزاحم لتصل إليه . وأنها لذلك تعتبر أن رحلتها وطوافها وسعيها ووقوفها بعرفة .. إلى آخر مناسك الحج التى أدتها على الوجه الأكمل ، كأن لم تكن ، لأنها لم تلمس الحجر الأسود .

وأوضحنا للرجل قدر الإمكان ـ بأداتنا اللغوية العرجاء ـ أن لمس الحجر الأسود أو تقبيله ، ليس شرطا ولا ركنا ، ولا واجبا من واجبات الحج ، وإنما هو نافلة : من أطاق أن يؤديها تشبها برسول الله ﷺ فبها ونعمت ، والا فإن حجته صحيحة مائة فى المائة ، وأننا جميعا لم يلمس أحد منا الحجر الأسود فى حجتنا هذه ، بل أن من بيننا من حج البيت واعتمر مرات عديدة سابقة ، لم يلمس فيها الحجر الأسود مرة واحدة .

وفرح الرجل بهذه المعلومة الجديدة عليه وعلى زوجته ، وسارع يشرحها لها . ولكنها كانت ترفض الإنصات إليه ، مشيرة إلى كتيب معها مكتوب باللغة التركية ، يتضمن شرحا لمناسك الحج . ويبدو أن كاتبه لم يميز بين الركن والواجب والنافلة ، واكتفى بأن يصف لقارئه الحج الأمثل او الأفضل ، دون تمييز بين حتمية أو أهمية الشعائر المختلفة .

وتعددت محاولاتنا العاجزة . ولعلنا نكون قد نجحنا قليلا فى التخفيف عن تلك المرأة المسلمة الحريصة على أداء فرض ربها على الوجه الأكمل . ولكنهما سافرا وسافرنا ، ونحن لا ندرى ـ حتى الآن ـ هل اقتنعت تلك السيدة بأن حجتها صحيحة ، أم عادت إلى بلادها وكأنها تحمل خفى حنين ؟

وبقيت لدينا تلك المرارة . من أن يلتقى مسلمان فى أرض الرسالة ، فيعجزا عن التفاهم فى شأن من شئون دينهما ، إلا من فُتات لغتين غريبتين عنها .

وبهذه المناسبة ، لا أدرى لماذا لا تقوم السعودية بطبع كتيبات تشرح للحجاج . بطريقة صحيحة ، كيفية أداء المناسك ، مكتوبة بلغاتهم الأصلية ، وتسلمها لهم مجانا مع تأشيرات الدخول أو عند ختم جوازات سفرهم عند دخول البلاد ـ كل حسب لغته ؟ بل لماذا لا تطبع السعودية أيضا مصاحف صغيرة سهلة الحمل ، مشروحة

شرحا مبسطا بهذه اللغات ، وتسلمها مجانا أيضا للحجاج من أبناء مختلف اللغات ؟ لا أعتقد أن هذا العمل يمثل عبئا ماليا أو تنظيميا كبيرا على الحكومة السعودية ، بالمقارنة إلى الأموال التى تنفقها على تطوير وتحسين أماكن الحج ، والجهود السنوية الهائلة التى تقوم بها لتنظيم معيشة وتحركات الحجاج ، فضلا عن حمايتهم من هجمات الغربان السوداء .

فإذا كان هذا شأن مسلمين قادمين من بلد مازال شعبه متمسكا بدينه بعد ٧٠ سنة من "الأتاتوركية" ومازال لديه علماء قادرون على تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى الناس ، فما بالك بإنسان مسلم مقيم فى بلد المهجر ، ضمن أقلية صغيرة ، جزيرة منعزلة أو شبه معزولة ، وسط محيط من الثقافة الإنجليزية المطروحة أمامه فى كل مكان ، وفى كل الموضوعات ؟

أو إنسان من اسرة مسلمة ، ولد فى المهجر ، وتعلم منذ نعومة اظفاره اللغة الإنجليزية ، قبل أن يتعلم كتابة اسمه بلغة أمته ، ثم تلقى كل علومه المدرسية والجامعية بتلك اللغة ، وتكونت ثقافته كلها أو معظمها من خلالها ، يقرأ بها الصحف والكتب ويشاهد الأفلام والعروض التليفزيونية ، ويتعامل بها كل ساعة من كل يوم ، حتى مع أبناء وطنه أو الأوطان الأخرى المغتربين معه .

وأهم من ذلك ، يجد مراجعها وكتبها جاهزة مفهرسة منظمة ، يلجأ إليها كلما ثار فى ذهنه سؤال أو استفسار عن معلومة تهمه فى حياته ، أو موضوع متعلق بدينه أو بتاريخ أمته . فيصل إلى المعلومة التى يريدها ، أو النقطة التى يبحث عنها ، فى ثوان او دقائق معدودة على الأكثر .

إنسان اعتاد أن يثق فى صحة المعلومات التى يجدها فى تلك الكتب والمراجع ، ويطمئن إلى دقتها واكتمالها و"موضوعيتها" ، كلما استفتاها فى شأن من شئون حياته أو مهنته أو تخصصه

العلمى ، فلماذا يتشكك فى هذه الدقة وهذه الموضوعية عندما يلجأ إليها بالذات في شأن من شئون دينه وتاريخه ؟ أى باختصار : هدف سهل ، وضحية منزوعة السلاح ، فى مواجهة حراب الاستشراق !

وقد اتهمنى بعض الاصدقاء بالتشكك والتحامل على الاستشراق والمستشرقين . وهى تهمة لا أنفيها ، وإن كنت أنكر جانب التعصب منها . فالمسألة ليست مبنية على الرفض الجزافى لنوع من الفكر لأنه صادر من أشخاص وهيئات غريبة عن الإسلام والعربية ، وإنما على ما وجدته فيما وقع إلى من كتاباتهم باللغة الإنجليزية ، حيث ينفردون ـ كما أسلفت ـ بالقارىء الذى لا يعرف ـ او لا يجيد ـ لغة الإسلام .

فالاستشراق يلعب فى الكتابات الإنجليزية المتعلقة بالدين والتاريخ الإسلاميين ، نفس الدور الذى لعبه اليهود والزنادقة فى عصور الإسلام الاولى : من دسّ أغرب الروايات وأضعفها وكأنها مسلّمات مقطوع بها ، وإبراز أبعد الأراء والتأويلات عن جوهر الإسلام ـ وكأنها الرأى "الرسمى" أو الشائع عند عامة المسلمين ، أو على الأقل كأنها مساوية له فى القوة والشيوع ، والتركيز على معتقدات المذاهب المتطرفة ، يشرحها فى إسهاب ويتيح لها من المساحة والاهتمام أكثر مما يتيح لغيرها من المذاهب المعتدلة ، بحيث تبدو كأنها الغالبة عليها أو الاكثر اهمية منها . فضلا عن الانحياز الطبيعى ضد الجانب الإسلامى فى كل نقطة من نقط التصادم بين العقيدة الإسلامية وبين العقيدتين اليهودية والمسيحية ، أو بين الحضارتين الإسلامية والغربية .

هذه هى السمات الرئيسية لهذا الفكر الاستشراقى ، ذكرتها فى إيجاز شديد ، وأضرب عليها بعض الامثلة الصارخة فيما يلى ؛ أستمدها من موسوعة عالمية ، لها منزلة كبيرة عند كل قارىء أيا كانت لغته . وسمعة لا بأس بها فى الحياد والموضوعية :

١ - فى مسألة "فواتح السور" ، وهى الحروف المقطعة التى تبدأ بها بعض السور القرآنية مثل "ألم" ، "ص" ، "ق" .. إلخ . فبعد أن يستعرض بعض الآراء الضعيفة فى سبب نزول هذه الآيات ، يقول إن أشيع النظريات وأقواها فى تفسيرها هى أنها الحروف الاولى INITIALS لأسماء مالكىَ النسخ الأولى من بعض أجزاء القرآن الكريم ، كتبوها عليها لإثبات ملكيتهم لها !

هل سمع مسلم او غير مسلم ، عالم او عامى ، بمثل هذه النظرية ؟ وهل قرأ أحد أن العرب كانوا يختصرون أسماءهم إلى حروف أولى مثلما تقول "ج . ف . ك" اختصارا لاسم "جون فيتزجيرالد كنيدى" ؟ بل هل يعرف أحد صحابيا من كتاب الوحى أو جامعى القرآن الكريم ، يمكن اختصار اسمه بهذه الطريقة الى "ك . هـ . ى ع . ص" ، او "ح . م . ع . س . ق" ؟

ولكن المستشرق المحترم لايبالى بأن ينشر هذا الهراء ، لكى يتجنب الإشارة إلى النظرية الشائعة حقا ، عن أن تلك الفواتح تأتى فى أوائل السور التى تبدأ موضوعها بالكلام عن القرآن نفسه . لتدل القارىء على أن القرآن - وإن كان مكونا من حروف كالحروف التى يتكون منها كلام الناس ، إلا أنه مفارق لكلامهم بإعجازه الإلهى - أو أى نظرية أخرى من النظريات التى ذكرتها كتب التفسير . لا يرضى المستشرق بهذا . فيرّوج - أو يخترع - هذه النظرية الظريفة .

٢ - فى شرح فرائض الوضوء : بعد أن يذكر أجزاء الجسم التى يلتزم المسلم بغسلها أو المسح عليها بالماء ، يسارع قبل أن يعجب القارىء بهذه الفريضة المقترنة بالنظافة والطهارة ، والتى جعلها الإسلام شرطا لأداء الصلاة ، يسارع بالقول فى اختصار شديد : إنه يمكن الاستعاضة عن الوضوء بالتيمم ، وأن أفعال التيمم هى نفس أفعال الوضوء ، مع الاستعاضة عن الماء بالرمل أو التراب .

ويترك القارىء ليستنتج أن المسلمين "يغسلون" وجوههم وأيديهم الخ .. بالتراب او الرمل ، كما يغسلونها بالماء ، ويتخيل ذلك المسلم الذى يستعد للوقوف أمام ربه بأن يهيل التراب على رأسه ووجهه ويديه ورجليه . دون أن يتورط الكاتب فى ذكر هذه الصورة صراحة (١) .

٣ ـ لا يتردد المستشرق حتى فى استثمار الأخطاء المطبعية ـ مقصودة كانت أم غير مقصودة ـ فيكتب مثلا اسم "المدينة المنورة" مستخدما حرف الدال D بلد من حرف النون N ، فنقرأها "المدورة" بدل المنورة .

ويبدو أن أحداً نبه الناشرين إلى هذه الغلطة ، أو تنبهوا إليها من تلقاء ذاتهم ، وإلى الفرق بين معنى الكلمتين ، فصححوها فى طبعة لاحقة إلى "المنورة" . ولكنهم حرصوا على أن يضعوا بين قوسين ، شرحا لمعناها بأنه "المستديرة" ، نفس المعنى الذى قصدوا إليه بالخطأ المطبعى السابق ، ضنا على القارىء بالمعنى الحقيقى للكلمة ، المستمد من النور الذى أضاء به شخص النبى ودينه تلك الواحة البعيدة فى قلب الصحراء العربية .

وليس الأمر قاصراً على حالتين أو ثلاث . فقد أحصيت ما يربو على خمسين خطأ من هذه الأخطاء ، لم أعدّ من بينها الأخطاء الناتجة عن اختلاف الرأى أو التحيز إلى جانب دون جانب ، بل أخطاء مادية صريحة ، مدسوسة بدهاء ، من هذا النوع الذى ذكرته . ولابد أن هناك عشرات أو مئات غيرها ، أغفلتها أو سهوت عنها ، أو مررت عليها دون أن أتبين موضع الخطأ فيها . كل هذا فى موسوعة واحدة ، محل ثقة كل من يسمع بها أو يتعامل معها ، فما بالك بمن يقتصر تعامله عليها أو على مثلها ؟

(١) التيمم ـ كما هو معروف ـ هو أن تضرب بكفيك على سطح جاف طاهر ، ثم تمسح على وجهيك وذراعيك ، وذلك فى حالة فقد الماء أو ندرته أو خوف الأذى من مرض أو غيره .

وليس هذا عذرا ، أو اعتذارا عن كاتب مثل سلمان رشدى ، الذى تعلم وعاش دهرا طويلا فى بريطانيا . فقد استدللنا على أنه مشارك مشاركة واعية فى عملية تشويه صورة الإسلام ، الذى لم يعرفه قط معرفة صحيحة ، بالإضافة إلى جهله الفاضح ، الناتج عن تتلمذه على الفكر الاستشراقى . وإنما نتحدث عن المثقف العادى ، حسن الظن ، حسن النية ، الذى يجد نفسه محاصرا بمثل هذه الكتابات ، يستمد منها وحدها ، معلوماته عن دينه وتاريخ قومه .

لا نستطيع أن ننظر إلى هذه الظاهرة بعين التجاهل والاستخفاف ، أو نشيح بوجوهنا عنها باعتبارها مختصة بلغة غير لغتنا . بل إن مسئوليتنا عن تنقية الكتابات الإنجليزية عن تراثنا ، لا تقل عن مسئوليتنا عن نظائرها المكتوبة باللغة العربية - إن لم تزد . على الأقل يستطيع القارىء العربى أن يراجع المعلومة التى يشك فيها على كتاب آخر من كتب التراث أو الكتب المعاصرة . أما القارىء بالإنجليزية ، فحتى لو حاول ذلك ، لوقع فيما هو أسوأ مما يشك فيه ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إننى أناشد هيئاتنا العلمية المتخصصة ، أن تقوم بمراجعة منظمة مستقصية لهذه المراجع الإنجليزية ، بادئة بأكثرها شيوعا واستعمالا ، وتنقيها من هذه الشوائب ، سواء بتنبيه الناشرين إلى تلك الأخطاء ، أو بنشر تصحيح فى صورة كتيب أو مقال بنفس اللغة ، إذا رفض الناشر أو تقاعس عن التصحيح .

كما أناشد علماءنا ومفكرينا ومثقفينا القارئين باللغة الإنجليزية ، أن يتبعوا نفس الخطوات ، كلما وقع أحدهم على خطأ أو دسيسة من تلك الدسائس . وهذا أضعف الإيمان ، وأقل ما يمكن أن نقدمه إلى إخواننا المغتربين ، المهاجرين بدينهم وعقيدتهم إلى بلاد الغرب ، وإلى الآخرين الذى ظلوا باقين بأجسادهم فى بلادهم ، بينما هاجرت عقولهم إلى اللغة

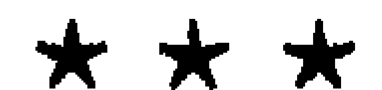
الإنجليزية .

كما أننى أطالب الدول الإسلامية ، وفى مقدمتها الدول العربية ، بأن تضم جهودها وأموالها لكى تضع موسوعة إسلامية شاملة ، باللغة الإنجليزية ، ليرجع إليها كل مسلم لا يعرف العربية ، فى شئون دينه وتاريخه . وأعتقد أن مثل هذه الموسوعة ، ألزم لنا فى هذه الظروف من موسوعة باللغة العربية . فالقارىء العربى ـ كما أسلفنا ـ يستطيع الاستعاضة عنها بكتب التراث الكثيرة ، أو بسؤال العلماء الموجودين فى بلاده .

ولا يتعارض هذا مع الدعوة إلى تعليم اللغة العربية للمسلمين من أبناء شبه القارة الهندية وغيرهم من الشعوب المتكلمة بغير العربية ، والمغتربين فى البلاد الأجنبية . بل على العكس ، يجب تشجيع هذا الاتجاه وتطويره ، وتوفير كل الطاقات والوسائل له ، بحيث تكون فى كل مدينة كبيرة فى العالم الإسلامى كلية للغة العربية ، وفى كل مركز إسلامى فى بلاد الغرب مدرسة ، تدرّس فيها مبادىء اللغة لمن لا يعرفها ، وترفع مستوى معرفته بها إلى درجة الإجادة إن كان ملما بها .

ولكن .. كم فى المائة من المثقفين والقارئين تستطيع مثل هذه الكليات والمدارس ـ إذا افترضنا إنشاءها ـ أن تعلمهم ؟ وكم فى المائة منهم سوف يصل إلى مستوى الإجادة التى تمكنه من الاطلاع على التراث الإسلامى باللغة العربية ؟ بل كم فى المائة منهم يهتم بقراءة هذا التراث بلغته الأصلية كالأوردية مثلا ؟

علينا أن نعترف بحقائق العصر ونتعايش معها ، ونذهب إلى المثقف المعاصر فى دائرة اللغة التى هاجر إليها ، ونعينه على ألا تكون هجرته تلك ، نكبة عليه وعلى دينه .



اللغة العربية عند أهلها

يقول الإمام البوصيرى فى بردته المشهورة :

أَمَرتُكَ الخَيْرَ لَكِنْ ما ائْتمرتُ به
وما استقمتُ ، فما قولى لك : اسْتَقِمِ

لا أعرف بيتا أبلغ من هذا البيت فى لوم الإنسان لنفسه حين يفعل خلاف ما يعظ به ، ولا أدل على حالنا حينما نطلب من المسلمين من غير أبناء العربية أن يتعلموها ، بينما نهملها نحن فنتخذها وراءنا ظهريا ، أو نضعها فى الدرجة الثانية من الأهمية ، أو نركن إلى فكرة أننا مادمنا قادرين على التفاهم بها ، وقراءة كل ما يلزمنا فى حياتنا اليومية ، وكتابة كل ما نحتاج إليه فى أعمالنا ـ بأى درجة من الوضوح ـ فكل شىء على ما يرام . وأن اللغة ، كما قرر المستشرقون ، ليست إلا أداة اتصال ، لا تزيد عن ذلك ولا تنقص .

ربما كان هذا القول صحيحا بالنسبة إلى الإنجليزية أو الفرنسية ، أو أى لغة أخرى .. إلا اللغة العربية ! .. أولا لأنها لغة القرآن ـ كتاب الله ، وثانيا لأنها الفن القومى الأول أو الوحيد للأمة العربية فى تاريخها الطويل ، فضلا عن كونها أداة اتصال أيضا ـ لا بين الناس المتعاصرين فقط ، بل بين الماضى والحاضر أيضا ، وبين علوم الدنيا وعلوم الآخرة .

فالإسلام "دين كتاب" ، بالمعنى الحرفى للكلمة . محوره ومصدر جميع عقائده وشرائعه ، هو القرآن ، (تكملها وتوضحها بالطبع السنة النبوية) . والقرآن كتاب له لغة ، لغة واحدة لا يمكن ترجمته إلى غيرها دون الإخلال بالكثير من معانيه ، وصوره البلاغية المركبة ، وموسيقاه اللفظية الظاهرة والخفية ـ المشاركة فى إظهار المعانى وتعميقها .

والإسلام من جهة أخرى ، "دين معجزة" . بمعنى أن معجزته الأولى والكبرى ، باقية على الدهر ، لا قاصرة على عصر النبى وحده ، ولا على الذين رأوها بأعينهم وحدهم . وهذه المعجزة الباقية ـ هى نفس هذا الكتاب .

ولا تكون هذه المعجزة باقية حقا ، إلا طالما بقى من يستطيع أن يراها ، ويفهمها ، ويتبين إعجازها ـ أى : يتذوق بلاغة القرآن .

هناك قول مشهور : أن القرآن قد حفظ اللغة العربية أكثر مما حفظته اللغة العربية . وهو قول صحيح فعلا . ولكننا لا يمكن أن نستنيم إلى هذه الفكرة ، ولا أن نقول مثل عبد المطلب "إن للبيت ربا سيحميه" ، أو نتوقع أن يرسل الله إلينا الطير الأبابيل ، لتحمى ديننا ومقدساتنا كلما تقاعسنا عن حمايتها . كما لا يمكن أن نركن إلى تأويل الآية الكريمة "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" ـ بأنها إعفاء لنا من مسئولية المحافظة على القرآن وحفظه . بل إنها أمر وتكليف من الله إلى كل مؤمن أن يكون أداة من أدوات تحقيق هذه الإرادة الألهية ، وإلا .. فإن إرادة الله سوف تنفذ حتما ، بصورة أو بأخرى ، بنا أو بغيرنا ، كما تقول الآية الكريمة من سورة محمد : "وإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قوماً غَيْرَكُم ثُمَّ لا يكونوا أَمْثَالَكُمْ" . نعوذ بالله من مثل هذا المصير .

وقد رأينا أثناء استعراضنا لمنطقة القاضى عياض فى إبطال قصة الغرانيق ، كيف أن التذوق البلاغى وحده ، هو الدليل المادى

القاطع على فساد القصة وتلفيقها . ونضيف هنا أنه بدون هذا التذوق البلاغى ، تصبح جميع الأدلة التى ذكرها قابلة للتصديق والتكذيب ، أو لا تقنع إلا من هو مقتنع سلفا بالأسس العقيدية التى انبنت عليها .

كما رأينا أن الفصل بين القرآن ولغته ، سواء بالترجمة أو بالشرح المبسط دون النص الحرفى للكلمات ، يفقد الكلام جوهره وروحه ، ويجعله يحتمل كل تفسير أو تأويل أو إضافة أو حذف ، ويسقط ذلك الدليل المادى القائم على التذوق .

و"التذوق" الذى نعنيه هنا ، هو الدرجة العليا من معرفة اللغة ، تسبقه درجة أدنى منه هى "الإجادة" ، وتسبقهما الدرجة الدنيا من المعرفة وهى "الإلمام" . وهى درجة يشترك فيها كل متكلم ومتعلم بالعربية ، يقرأ بها الصحف ، ويكتب بها فى تعاملاته اليومية ، ويتميز بها وحدها على من ليس من أبناء اللغة . ولكنها ميزة سلبية ليس لصاحبها فضل فيها ، وإنما اكتسب إلمامه ذلك بحكم المولد والبيئة ، وقليل من التعليم والتعلم . أما الإجادة ، فضلا عن التذوق ، فهى لا تكتسب إلا بالمران والمعاناة والمجاهدة ، بل والحب !

وقد رأينا أيضا كيف جاهد ذلك الغراب الأبيض ، وعانى ، وتمرن وتدرب فى صبر ودأب ، لكى يخلص لسانه وصوته من كل لكنة أجنبية تباعد بينه وبين التشبه بسادته الذين يطمح إلى الالتحاق بهم ، ويتمنى أن يقبلوه واحدا من جماعتهم . أفلا يجدر بنا نحن أن نجهد قليلا أو كثيرا لنتشبه بأسلافنا ، بناة ديننا وتاريخنا ؟

وليس كلامى هذا موجها إلى ذلك الشاب المتعلم ، طبيبا أو ضابطا أو مهندسا أو محاميا ، الذى إذا صوبت له خطأ لغويا ، نظر إليك مبتسما فى سعادة وخيلاء ، وهو يقول لك : "أصلى ضعيف

في العربي" . ولا إلى تلك المذيعة التي بنت شهرتها على ما قدمته من برامج عن أعلام الأدب العربي المعاصرين ، ومع ذلك تفاخر في مجالسها الخاصة بأنها "لم تقرأ سطراً من اليمين إلى الشمال منذ سنوات" . وإنما أوجه كلامي إلى الشاب الجاد المخلص ، المعتز بشخصيته المتمثلة في دينه أو قوميته ، أو فيهما جميعا ، والذي يبحث عن الطريق الذي يؤكد به هذه الشخصية ويعمقها ، ويحولها من مجرد اسم على غير مسمى ، إلى ممارسة حقيقية جادة .

فمعرفة اللغة العربية بأي درجة من المعرفة ، كما أنها ميزة يتميز بها المسلم العربي ، هي في نفس الوقت مسئولية ، يترتب عليها واجب ، بل أكاد أقول فريضة ، تفرض عليه أن يرتقي بمستوى معرفته بها إلى الإجادة على الأقل ، وصولا إلى التذوق بأي درجة من درجاته .

وليس معنى ذلك أنني أطالب ذلك الشاب بأن ينكبّ على كتب النحو والصرف يدرسها ويحفظها لكي يجيد اللغة ، ولا أن يحفظ بحور الشعر وقواعد العروض والبلاغة لكي يستطيع أن يتذوق آدابها . لست أطالبه بهذا ولا ذاك ، ولا حتى أنصحه به ، بل أحذره منه وأنصحه بتجنبه . فاللغة تُتعلم بالقراءة والاطلاع . وتُكتسب ـ مثلها مثل أي مهارة أخرى رياضية أو عقلية ـ بطول الممارسة .

كل ما أطلبه من ذلك الشاب ، هو أن يمسك بكتاب من كتب الأدب العربي المعاصر أو القديم ، أو بكتاب من أمهات الكتب العربية في أي موضوع يميل إليه ، ككتاب "الأغاني" مثلا ، أو تاريخ الجبرتي ، أو طبقات فحول الشعراء ، أو ديوان المتنبي ـ يمسك به ويقرأه ، بلا خوف ولا رهبة . يقرأه كما يقرأ مقالا في جريدة أو قصة في مجلة . لا يطالب نفسه فيه بالتوقف عند كلّ كلمة ، ولا بفهم كل عبارة ، فليس هناك من سيمتحنه فيه ، وليس

مسئولا أمام أحد عن درجة استيعابه له . يكفى أن تستهويه فيه من حين إلى حين .. قصة ظريفة ، أو نادرة مسلية ، أو معنى جديد ، أو أن يتمتم لنفسه ببيت من الشعر يرى فيه جانبا من الجمال .

يكفيه أن يقرأ فى مثل هذا الكتاب ساعة أو نصف ساعة ، بغير التزام ولا مواعيد محددة كالمواعيد المدرسية . ثم يضع علامة على المكان الذى توقف عنده ، ويعود إليه غدا أو بعد غد ، أو عندما يجد فى نفسه الرغبة فى معاودة القراءة . فليس هناك من يسوقه بالسوط لكى يكمله .

وأنا أؤكد لذلك الشاب أنه قبل أن تمر بضعة شهور ، أو عام واحد أو أكثر أو أقل ، سيكون قد قرأ ذلك الكتاب من أوله إلى آخره . ربما تكون درجة فهمه أو استيعابه للكلام فى أوائل الكتاب لا تزيد عن ١٠٪ ، ولكنه قبل أن يصل إلى نهايته سيكون قادراً على استيعاب ٧٠٪ أو ٩٠٪ . وستكون قد تفتحت أمامه أبواب من المتعة والجمال والمعرفة لم يكن يحلم بوجودها أصلا . وسيكون قد ارتقى بمعرفته باللغة ، وقدرته على التعامل بها ومعها ، درجة أو درجتين أو عشراً .

ثم ليرجع ذلك الشاب بعد ذلك ـ أو أثناء ذلك ـ إلى القرآن الكريم ، يقرأ فيه . وسيجد نفسه حتما ، أقدر على فهم آياته ، والإحساس بمواطن الجمال فيه ، وإدراك معنى الإعجاز فى بلاغته ، مائة مرة ، مما كان قبل أن يقرأ ذلك الكتاب الواحد . وسيجد نفسه أيضا ، مدفوعا إلى قراءة كتاب أو ديوان ثان وثالث . وربما تصبح المسألة عنده إدمانا !

وأنا بالطبع لم أخترع هذا المنهج . وإنما هو المنهج الوحيد الذى اتبعه ويتبعه ، كل من يريد أن يتثقف فى أى لغة وفى أى موضوع ، فى أى بلد وفى أى أمة . لا ما درجنا عليه ـ بفضل أسلوب التعليم فى بلادنا ـ من النظر إلى الكتاب باعتباره عدوا أو

خصما ، قاتلا أو مقتولا ، إما أن تحفظه وتلخصه وتخططه ، لكى تنتصر عليه ، وتتقن جميع الحيل التى سيلجأ إليها الممتحن الماكر للإيقاع بك فى الامتحان ، أو أن تقع فريسة فى فخ من فخاخه أو كمين من كمائنه .

وهذا أجدى عليك وعلى دينك ، من الاقتصار على الاستماع إلى الدروس الوعظية بعد صلاة العصر أو صلاة العشاء ، يلقيها إليك - فى الغالب - متفيقهٌ لا يحسن أن يقرأ سطراً أو بيت شعر من لغة القرآن ، أو حديثا من أحاديث الرسول ، دون أن يخطىء فيه مرات عديدة ، ولا يكاد ينجو من لحنه إلا بضع آيات يحفظها عن ظهر قلب ، ويرددها فى تعالم وتعاظم . ثم ينهاك عن قراءة الشعر والأدب ، بحجة أنها تشغلك عن التفقه فى دينك ، وموالاة الصلاة والصوم . فهو لا يعلم أنه فى عصرنا هذا ، الذى أصبح فيه مثله هو خطيب القوم وصاحب كلمتهم ، أصبح تعلم اللغة وإجادتها وتذوقها فرض عين ، أو واجبا على الأقل ، لا يقل - فى جدواه وفى ثوابه - عن صلاة ألف ركعة من النوافل ، أو صيام ألف يوم فى غير رمضان .

وأنا أعجب أيضا لذلك الشاب المتحمس لدينه ، الذى لا يدع شيئا من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عادة من عاداته أو مظهره أو هيئته ، إلا تتبعها وقلدها وترسّم خطاه فيها : يطلق لحيته ، ويرتدى الجلباب والطاقية ، ويمشى الهرولة ، ويكتحل كما كان يكتحل رسول الله اتقاء لوهج الشمس ، بل لا يتردد فى أن يذهب إلى الجامعة ممتطيا جملا - كما سمعنا ، لأن الرسول كان يركب الإبل .. يتكلف كل هذا ، ولا يخطر بباله أن يقلد رسول الله فى ألصق شىء به وبدينه ، وبالكتاب المنزل عليه ، وهو لغته التى يتكلمها ، والتى أوتى فيها جوامع الكلم . طبعا .. لأن إتقان لغة القرآن أكثر جهداً ، وأوعر مركبا ، وأقل تظاهرا ، من ركوب الجمل وإطلاق اللحية إلخ .. وهو لهذه الأسباب نفسها - ولأن لكل شىء

ثمنا - أجدى على المسلم العربى خاصة ، ثم على الإسلام نفسه ، من تلك السنن الشكلية .

ومن الظلم أن نحمّل شبابنا وحدهم مسئولية جهلهم باللغة العربية وآدابها وتراثها ، أو أن نطالبهم بإصلاح كل ما أفسده الدهر بالجهود الذاتية . فالمسئول الأول هو نظام التعليم والأجهزة التعليمية ، التى تسلمناها من المستشرق "دانلوب" منذ سبعين سنة ، بعد أن غرس فيها أول بذور الإفساد والتجهيل . وبدلا من أن نغيرها ، ونجعلها فى خدمة أهدافنا القومية الحقيقية ، زدناها فسادا على فسادها ، سواء بكارثة "شرشر" فى الخمسينات والستينات ، التى كان الهدف المعلن لها هو سرعة تعليم القراءة والكتابة ، ثمْ كانت نتيجتها العملية تخريج أجيال متتابعة من الأميين الذين لا يحسنون قراءة الشهادات الدراسية الممنوحة لهم .. أو بنكبة مدارس اللغات ، التى أعلنت أيضا أنها ستخرج أجيالا من "مزدوجى اللغة" ، فخرجت أجيالا من "معدومى اللغة" لا يجيدون اللغة العربية ، ولا اللغة الأجنبية .

ورحم الله أستاذنا "حسن فهمى" ، الذى كان يدرس مادة التكنولوجيا باللغة الانجليزية ، ويحرص على أن يمتحن طلبته فى ترجمة فقرات من الكتب الهندسية من الانجليزية إلى العربية ، ويحاسبهم فيها ، لا على صحة ترجمة المصطلحات الفنية فحسب ، بل على جودة الصياغة ، وعلى الأخطاء النحوية والإملائية أيضا . فإذا احتج عليه طالب من خريجى المدارس الأجنبية القديمة ، أجابه بلهجته الحادة التى تشبه دفعات المدفع الرشاش : "لا تحاول أن تضحك علىّ . أو على نفسك . إن من لا يعرف لغته ، لا يعرف أى لغة أخرى !" .

ولا يتسع المجال هذا لمناقشة الإجراءات اللازمة للمحافظة على لغتنا ، وإعادتها إلى مكانها الطبيعى على ألسنتنا وأقلامنا وعقولنا ،

ولكننا نطالب بأن تضع الدولة هذه المشكلة فى موقعها الصحيح من الاستراتيجية القومية . لا باعتبارها مشكلة عابرة نتذكرها حينا ثم ننشغل عنها بالمشاكل اليومية ، بل باعتبارها خطرا يهدد كيان الأمة ووجودها ، فضلاً عن دينها الذى تعتز به فوق اعتزازها بوجودها نفسه .

وقد يبدو ـ لأول وهلة ـ أن هناك تناقضا بين المنهجين ، أو الموقفين ، اللذين ننادى باتخاذهما بالنسبة إلى المسلمين المغتربين ، وبالنسبة إلى العرب المقيمين . فقد يقول قائل : ما بالك تنادى بأن نذهب إلى اللغة الإنجليزية ، نصحح كتبها ، وننقيها من الشوائب التى تشوه صورة الإسلام ، وأنت فى نفس الوقت تطالب بأن يتمسك أبناء العربية بلغتهم ، ويطوروا معرفتهم بها من الإلمام إلى الإجادة إلخ ..؟

وأنا لا أرى أى تناقض بين هذين السبيلين ، بل لا أرى إلا تكاملا وتقسيما للوظائف . فالمسألة من وجهة نظرى تشبه حالة إنسان يصارع الأمواج وحده ، وأنت واقف على الشاطىء تريد أن تساعده ، فتلقى إليه بحبل يمسك به . فلابد لك أن تجذب الحبل بكل قوة ، ولابد لك أيضا أن تتشبث بالأرض وتغرس قدميك فيها . فلو أرخيت الحبل أو أوهيته أو قطعته ، لغرق صاحبك . ولو تراخيت أو تكاسلت عن التشبث بالأرض ، لغرقتما معاً .

ترى هل نحن أهل لهذه المسئولية ؟ أم سوف نظل على تقاعسنا وسلبيتنا ، مستسلمين للعجز والبخل والكسل ـ نعوذ بالله منها كما عاذ رسوله صلى الله عليه وسلم ، تاركين المجال خاليا لكل من شاء أن يتكلم باسمنا واسم ديننا ، أو يتظاهر بالدفاع عنه ، إلى أن نفيق يوما على نعيق الغربان ، وهى تحوّم بأجنحتها السوداء متجهة صوب "مكة شريف" ، لكى تحقق أحلامها السيكولوجية بانشقاق البحر العربى ، وبأن يتحول كل إنسان منا أو من أبنائنا ـ بوجهه

وقلبه وروحه ، شطر "لندن شريف" ، كما فعل ذلك الغراب الأبيض ؟

★ ★ ★

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلوبَنَا بعدَ إذْ هَدَيْتَنَا ، وهبْ لنا مِن لَدُنْك رحمةً ، إنَّك أنتَ الوهَّابْ .

والحمد لله أولا وآخرا .

وصلى الله على ملائكته وأنبيائه ورسله ، وعلى المصطفى من خلقه محمد النبى العربى الأمىّ ، وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأزواجه ، ومن صلح من ذريته ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ...

.. وسلَّمَ تسليما كثيرا .

الفهرس

● تقديـــم ٧
● تقسيم الكتاب ١٠
الباب الأول : الرواية :
● الفصل الأول : الملاك جبريل ١٦
● الفصل الثانى : لندن (إيلوين ديووين) ٣٠
● الفصل الثالث : مدينة تبصرها ولا تراها ٣٤
● الفصل الرابع : الملاك عزرائيل ٣٨
● الفصل الخامس : المصباح العجيب ٤١
● تقييم الرواية ٤٣
الباب الثانى : الرسالة
● الرؤيا التناسخية الأولى : ماهوند ٥٤
● الرؤيا التناسخية الثالثة : عودة إلى جاهلية ٧٣
● الرؤيا التناسخية الثانية : الإمـام ٨٤
● الرؤيا التناسخية الرابعة : انشقاق البحر العربى ٨٧
الباب الثالث : المؤلف من خلال كتابه
● عقيدة المؤلف الدينية.. ٩٢
● عقيدة المؤلف السياسية ١٠٣
الباب الرابع : أصداء ظهور الكتاب
● صدى الكتاب عند الغربيين ١١٠
● صدى الكتاب عند اليهود ١١٨
● صدى الكتاب عند عامة المسلمين ١٢٩
● صدى الكتاب عند حكومة إيران ١٣٣
الباب الخامس : أصل الداء ، وأول الدواء
● الجزر اللغوية فى المحيط الإسلامى ١٤٢
● اللغة العربية عند أهلها ١٥١

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٥٦٧٩ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٣ - ٤٣٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

هذا الكتاب

أول دراسة موضوعية لكتاب « آيات شيطانية » لكاتبه الهندي الأصل سلمان رشدى ، وهو الكتاب التى كثف كاتبه الافتراءات ضد الاسلام خلال أربعة عشر قرناً .

يصحب الكاتب زهير شاكر القارىء فى رحلة على امتداد الكتاب بقسميه الروائى والتقريرى ، ويقوم برحلة أخرى فى أعماق سلمان رشدى ، كما تظهر من خلال كتابه .. كما يتناول تحليلا لموقف سلمان رشدى من قضية المواجهة بين الانسان الشرقى وبين الحضارة الأوربية المعاصرة .

ونتعرف من خلال هذه الدراسة على انعكاسات ظهور الكتاب على القطاعات المختلفة من الراى العام ، والدوافع وراء هذه المواقف .. كما يحلل الظروف الحضارية التى مهدت لظهور آيات شيطانية .

إنه كتاب يجب أن يقرأ ، ويجب أن يترجم للغة الانجليزية لكى يكون فى متناول كل من قرأ تلك « الآيات الشيطانية » .


توشيبا مع العربي
تقدم أجمل مروحة
في عز الصيف
من غير تكييف
بتكيف مطرحك
ضمان الثقة
تعمل ليلاً ونهاراً بدون توقف فنحن نضمنها
خمس سنوات
* صناعة مصرية .
* جودة عالمية .
* بترخيص من توشيبا العالمية .
إنتاج الشركة المصرية للأجهزة الكهربائية والالكترونية
ش.م.م
الوكلاء
شركة
العربي
العربي
توشيبا
TOSHIBA
Toshiba
بالموسكي وشبرا وبورسعيد

أوليمبيك إليكتريك

OLYMPIC ELECTRIC

سخانات

دفايات

مراوح

مكانس كهربائية

بلاستأويما

شفاطات

ولا يزال التجديد مستمرًا

